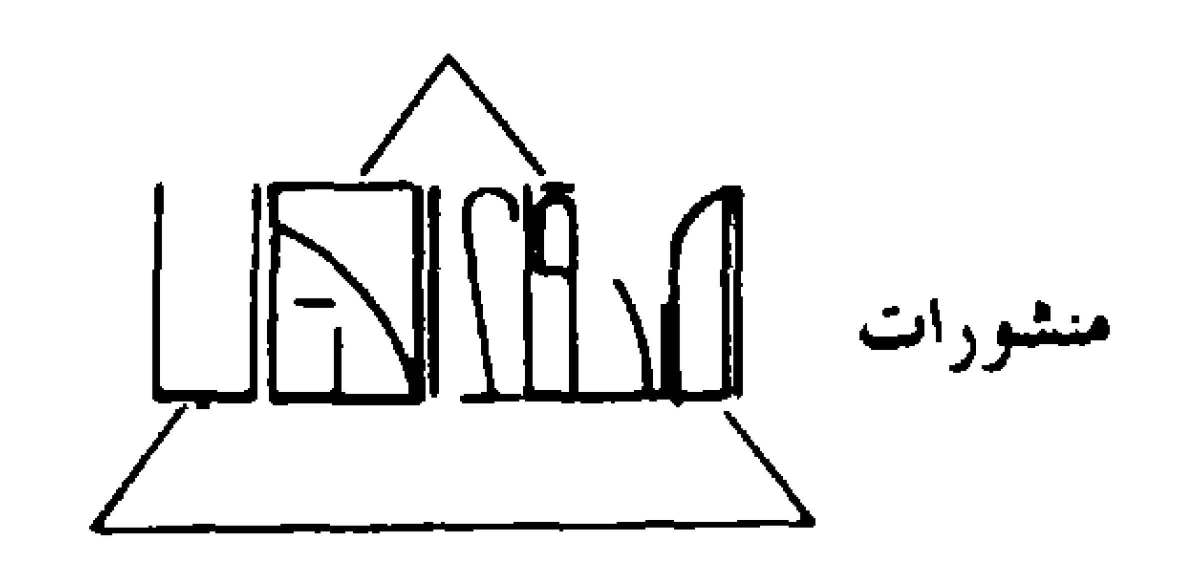
إعادة حكاية
حاسب كريم الدين
وملكة الحيات



بدر الديب

وراء الكينونة
الكتاب الثانى



٣ عدنان المدنى ــ الصحفيين ت : ٣٤٦١٨٣٢

الغلاف للفنان : آدم حنين

الطبعة الأولى يناير ـــ ١٩٩٠

إعادة حكاية
حاسب كريم الدين
وملكة الحيات

بدر الديب

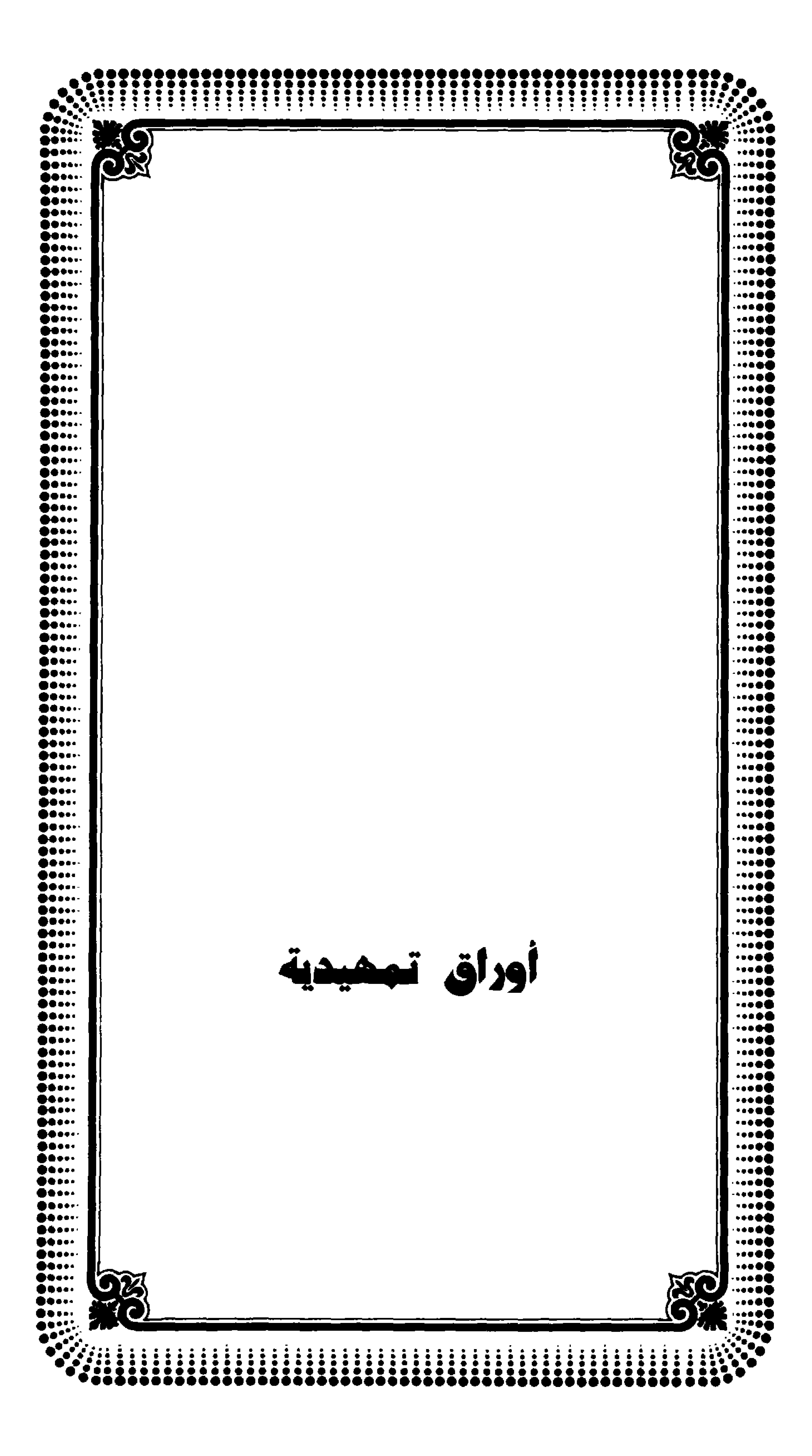
وراء الكينونة

الكتاب الثانى

فهرست

رقم الصفحة

رقم الصفحة



أوراق تمهيدية

□□ فى هذه الأيام الغريبة من أيام حياتنا ، فى بلادنا العربية ، موجة متزايدة متصاعدة من كتابة المذكرات ... كنا نظنها فقط فى مصر ، وبعد خمود أنوار عبد الناصر ، ولكنها ، فيما يبدو سمة من سمات العصر ، فهى فى كل مكان من أرضنا العربية . وكلهم يحاولون إعادة كتابة التاريخ ، أو صنع التاريخ الذى يريدون . ففى الحقيقة لم يكتب التاريخ ليعيدوه .

فى مصر ، ما شاء الله ، تخمة من المذكرات ، ولكنها أيضا فى المغرب والجزائر وفلسطين ، وأظنها تستعد لتتصاعد فى لبنان والعراق ، ومن يدرى ، حتى فى السعودية . أصل المسألة ، بالطبع ، أننا مازلنا لا نعرف التاريخ . نعامله كأنه جب مسحور ، من يدخله ، يسرق ما يريد ليخرج هاربا قبل أن تغلق عليه الأبواب فيموت . وكأننا مازلنا نكتب ألف ليلة وليلة .

ولا مانع دائما مع تعدد الأبطال والليالى أن نعيد تركيب الصورة ، فليس للصور إطار أصلى يحفظها ، ولكن لأننا جالسون لا نصنع شيئا ، فنحن لا نتحرك فى زمان أو مكان . ولكننا نصطنع المسئولية ونصنعها كما نريد .

ولكنه ـــ أن نعلم ـــ حتى فى ألف ليلة وليلة مسئولية وتركيب .

أنا حاسب كريم الدين . ولست أعرف مسئوليتى عن اسمى أو عن الدين ، إذا كنت حاسبا فهل هناك تناقض مع أننى كريم .

وإذا كنت كريم الدين فهل أنا كريم بالدين ، أم الدين الكريم هو الذى جعلنى كذلك .

وأخيرا ما الذى أحسبه ، وأى دين هذا الذى أنا فيه .

ما أصعب اسمى وما أعقده ، وهل كل أسمائنا العربية كذلك .

إننى أحسه وأنا أشرع فى كتابة هذه المذكرات أنه معادلة رياضية معقدة صعبة ، وقد تحتاج إلى حاسب آلى لحلها أو تحديد أبعادها ودلالاتها .

تقول ألف ليلة وليلة ، إن والدى كان اسمه دانيال .

ودانيال الذى نعرفه من التاريخ نبى عظيم من أنبياء إسرائيل . صاحب فى زمانه السبى البابلى وكانت له حكمة ووزارة فى الغربة . وكانت له تنبؤات ومعرفة بالمستقبل ، ومن بينها النبوءة الكبرى بالنبى القادم فى آخر الأيام ، أيام اليهود ؟!

ولما كنا نخشى من حكايات الأنبياء ، فقد أصبح أبى حكيما من الحكماء . ولما كنا نحسب الحكمة فى أرض اليونان وحدها ، فقد أصبح أبى حكيما من حكماء اليونان .

وهكذا بدأت مذكراتى المكتوبة فى النص السابق لهذه المذكرات .

وقد حضرت أنا فى « حاضر العصر والأوان » لأعيد كتابة هذه المذكرات .
هل أبدأ من البدء ،
أم أبدأ بالمعنى .
وماذا تعنى الكلمة التى كانت هى البدء ؟
فهل وراء الخلق كلمة ؟
أم أن وراء الكلمة كينونة .
وبين الكينونة والخلق ، كلمة ،
قد جعلت الوجود خلقا .
وصنعت للكينونة وظيفة .
لو بدأنا بالوظيفة انحسرت الكلمة فيها ،
ولو بدأنا بالكلمة وقع بينها وبين الكينونة .
عدم لا يعبر ،
واستقلت الكينونة بنفسها فى حرية مطلقة
لا يمسكها شىء إلا تكرار الكلمة .
ومن التكرار يصنع الزمان والمكان ،
ومن الحرية تمارس الكينونة وجودها .
ولكن الكلمة ترد الكينونة إلى عقالها
بأن تحدد الوظيفة .
وهكذا تنتهى المسرحية الأولى
وتستريح البطلات الثلاث .
الكلمة والكينونة والوظيفة ،
وتصبح أسماؤها الجديدة :
كن والخلق والعبادة
ثلاث من الإناث يرسمن
مصائر الوجود
ويكررن فى كل زمان ومكان
« وما خلقناكم إلا لتعبدون » .
فلنبدأ من البدء الحكاية .

الفصل الأول

الإرث والميلاد

□□ جاء فيما قلت فى الأسطر السابقة أن اسمى حاسب كريم الدين وأننى أريد أن أكتب مذكرات مثل المذكرات التى تكتب فى العالم العربى هذه الأيام . ولكننى فى الحقيقة ــ كما قلت ــ لا أكتب هذه المذكرات بل أعيد كتابتها فهى مكتوبة مقروءة فى ألف لية وليلة من الليالى ٤٦١ ــ ٥٢٧ لمن يريد أو يفضل قراءتها بغير فهمى وأسلوبى الذى اخترته لإعادة الكتابة . فالواقع أن إعادة الكتابة هى تقرير للعجز عن الفهم أو هى محاولة لفهم ما لم يكن مفهوما أو ما لا يمكن فهمه وما أكثر ما لا يمكن فهمه فى حياتى .

ولكنى وقد تقدم بى السن الآن قد وجدت أن القصة المكتوبة قد اختلطت فيها الحقائق بل وتعارضت مع الواقع فأخفت الكثير من المشاعر وأسقطت الكثير من الوقائع . فأنا مثلا على عكس ما تقول القصة المكتوبة لا أنعم بهذا القدر من المعرفة الكلية الشاملة التى تنسبها إلىّ فى آخر حياتى ولا أظن أحدا يمكن أن ينعم بها ، كما أننى مازلت أنتظر ، ولم يصلنى بعد ، هادم اللذات ومفرق الجماعات . ولكننى وقد أحسست تقدم السن ورأيت أن عينى بدأتا تضعفان ضعف الشيخوخة وبدأ يداخلنى الشعور بالفناء القادم علىّ ، شعرت أن علىّ أن أحسب وأن أحاسب ما مر من أيام .

وأول ما أدركته من كشف الحساب والأمر الذى جاء فى مقدمة كل أمر ، هو أن الكتابة كذب وتزييف لما حدث فما هو مكتوب ليس ما هو حدث إلا إذا قلت إن ما حدث هو المكتوب وسكت . وكل كلام أقوله هو أيضا كذب وتزييف فمجرد القول تجديد لواقع يخلو منه القول فأنت لا تحكى ما حدث بل تقول ما يحدث وأنت لا تنقل الواقع بل تصنع واقعا لا يمكن نقله لأنه دائما يحدث وأنت تقوله وهكذا تغيره دائما وتكذب عليه .

وإذا كانت هذه الحقيقة فى رأس كشف الحساب فهو ولاشك حساب خسارة لا تنتهى وكل إضافة ، مهما كانت ، مخصومة من البدء مستوعبة فى حجم الخسارة الكبير . أما المكاسب على الطريق فهى تلك الدعوات القائمة فيما حدث لإعادة الكتابة أو لبدء الحكاية من جديد .

اللهم أعنى على ما ابتليتنى به من مسئولية وعلى ما حملتنى من أمانة . فأنا من بنى الإنسان الذين هم أعجز عن أن يحملوا ما حملوا من أمانة .

لقد ولدت ــ على غير ما تقول الحكاية المكتوبة ــ فى إحدى ضواحى القاهرة الجميلة أيام كانت جميلة . وكان أبى على غير ما تقول الحكاية بستانيا عارفا بالنبات وقد جعلته القصة حكيما طبيبا عارفا بالأدواء والأمراض .

وإذا كنت فى الحقيقة قد عرفت أبى وعايشته فإن الحكاية تريدنى أن أكون كأبناء الحكايات قد جئت على كبر وبعد يأس من الخلف واستغفار وتوبة إلى الله المانح الوهاب . وبعد صلاة طويلة وتأمل أخير فى حياته قام أبى وواقع أمى فعلقت منه فى ليلتها بعد عقم طويل . وقد لا أستطيع أن أعرف أبدا ماذا كان فى صلاة أبى أو فى غرامه ليلتها وما هى كيمياء الاستغفار إذا امتزجت بالرغبة والشهوة ولا كيف يمكن أن يكتب هذا الواقع إلا بالقول إنه مكتوب . فكل واقع فى الحقيقة ، مكتوب ، أو غير مكتوب هو مكتوب لأنه واقع . ولست أريد أن أقول إن الطريق الذى اختارته الحكاية أفضل أو أغنى بالدروس التى يمكن أن تستفاد منه . ولكنى أقبل المكتوب لأنه مكتوب ولأن ما حدث فيه من تزوير ونقص لا يمكن تصحيحه إلا بإعادة الكتابة التى ما تبدأ إلا ليصبح من الضرورى إعادتها من جديد .

ويبدو أن الليلة التى وقع فيها الحمل كان وقعها ثقيلا على أبى . فعندما أقبل الصباح ورأى أبى وجه أمى وقد استنار واستدار وظهر فيه ضوء غريب مما وقع فى داخلها صمت وصمتت لم تكلمه . فأدار الرجل ظهره إليها فى الصباح حتى لا يحمل نفسه مسئولية ما حدث وكأنما كان يتمنى ألا يجيبه الله إلى ما سأله منه . وبعد صمت فى الصباح بلغ الضحى قال لها ــ كما قالت لى ــ إن عليه أن يسافر . سألته إلى أين قال لا أدرى فسألته لماذا فكرر لها نفس الجواب . فقالت له ما الذى يجعل الأمر ضرورة . ولا أظنه إلا قد تحير كثيرا قبل أن يجيب ، لأنه لم يجد ما يجيب به إلا تلك الكلمة الغريبة التى يؤرقنى الآن فهمها : مكتوب .

ولا أظن عقلى هو الوحيد الذى تحير أمام المكتوب فكل أمتنا وحضارتنا ــ فيما يبدو ــ قد تحيرت كذلك أمامها دون أن تفعل شيئا إلا أن تعيد كتابة المكتوب . فليس هناك ما يدعو إذن ــ ولا نتيجة ــ لأن نتوقف عند هذا .

وقد سافر أبى فى الواقع أكثر من مرة تاركا أمى حاملا ولكنه فى الحكاية كان جادا قاطعا لأن البدء يريد مثل هذا القطع وتلك الجدية الحاسمة .

وهكذا قال لها : ليس لدى أغلى وأعز من كتبى . وكانت كتبه فى الواقع كثيرة وفى عدة لغات . واستمر قائلا لها أنا لا أستطيع أن أفارقها . فوضعت أمى يدها على صدرها وبطنها وقالت ولكنك تستطيع أن تفارقنى أنا . فلم يجب أبى ونظر مرة أخرى فيما وقع

على وجهها من نور وسألها مرة واحدة مفاجئا لها : من أين لك هذا النور . فضحكت سعيدة وكأنه لن يسافر وقالت داعية متحببة : منك . فأدار الرجل وجهه وحمل كتبه كلها فى صناديق وخرج .

وكم كنت أريد أن أعيد كتابة هذا المكتوب أكثر من مرة حتى أصل فعلا إلى ذكر حقيقة ما وقع . ولكننى فى الحقيقة لا أستطيع لأن هذا سيشدنى إلى طريق غير الطريق الذى اخترته الآن وسوف يضيع منى الكثير مما أظن أننى قد وجدته فيما هو مكتوب .

حمل أبى كتبه فى مركب وسافر راكبا البحر . ولست أدرى لم أختار أبى المركب والبحر ؟ وكأنه يريد أن يكون وحيدا وأن تذهب كتبه جميعها إلى البحر . فهل كان يريد أن يخلص من حياته بعد أن انتهى من ليلة الغرام التى استجاب فيها الله له . أم كان يريد أن يخلص من ثقل كتبه التى ربطته وأخذته من كل شيء فى الحياة حتى زوجته . أم هو كان يعد فى الحقيقة لوصيته ولما سيتركنى فيه من يُتْم .

ها أنا فى الحقيقة أتعجل ما حدث وأريد أن أسد تلك الفراغات المخيفة فى الواقع المكتوب كما تفعل الكتابة تماما ودائما . فلا أظن أن الصدق الكامل يرضى بأن تنتقل فى الكتابة من كلمة إلى أخرى لأن بينهما ما لا نهاية له من كلمات .

لقد عاد أبى وكان يمكن ألا يعود . عاد ومعه معنى سفرته فقد تحطم المركب من ريح البحر وغرقت الكتب بصناديقها واختفت فلم يَعُد له من العلم إلا ما حصله فى صدره وما أصبح خفيا لا يملكه غيره . فهل كان هذا المعنى هو الميراث الذى يعده أو أعده لى .

فقد قالت لى أمى والحكاية المكتوبة — وهل هما أمران أو واقعان مختلفان ؟! — إنه عندما عاد إلى بيته كان معه خمس ورقات بقيت من الكتب التى وقعت فى البحر .

« فلما رجع إلى بيته وضع تلك الأوراق فى صندوق وقفل عليها ، وكانت زوجته قد ظهر حملها ، فقال لها اعلمى أنى قد دنت وفاتى وقرب انتقالى من دار الفناء وأنت حامل فربما تلدين بعد موتى صبيا ذكرا ، فإذا وضعته سميه حاسب كريم الدين وربيه أحسن تربية وإذا كبر وقال ما خلف لى أبى من الميراث فاعطيه هذه الخمس ورقات فإذا قرأها وعرف معناها يصير أعلم زمانه . ثم كان أن ودعها وشهق شهقة ففارق الدنيا .. » .

لقد تفكرت كثيرا فى هذه الكلمات المكتوبة والمسموعة من أمى وقرأتها مرارا ورددتها ترديدا لنفسى . وتوقفت عند « اعلمى .. » وعند وأنت حامل .. ثم « فربما تلدين بعد

موتى صبيا .. » وإذا كبر ... فإذا قرأها وعرف معناها ... أعلم زمانه ... فهل هذا المكتوب هو إذن حياتى وهل هذا ما وقع . إنه كامل ملىء بالدلالة الحية المتحركة ومع ذلك فهو ناقص من كل جانب . فأنا لا أظن أن الورقات الخمس قد بقيت من كتبه أو كانت مكتوبة فيها . ولم يكن هناك داع ــ ربما ــ لأن تصف الحكاية الصندوق الذى وضع فيه أبى ورقاته الخمس والتى كانت فيما أجزم مكتوبة بخطه . فقد امتلكت الصندوق وصاحبتنى الأوراق طول حياتى .

إن الكلمات فى الحكاية مكتوبة كما يجب ومع ذلك فقد جرؤت بما أعرف من أسلوب أو علم للأسلوب ــ إذا كان هناك علم بهذا الاسم ــ أن أعيد الكتابة وأن أختصر الرسالة أو أركزها متقصيا موجات وأهداف التعبير . وأظنها قد بقيت فى صدرى على هذا النحو : « اعلمى قد دنت وفاتى وأنت حامل فإذا وضعته سميه حاسب كريم الدين وإذ كبر فاعطيه هذه الخمس ورقات فإذا قرأها يصير أعلم زمانه » ولا يكاد يفرغ لى تعجب مما حذفت ولم أضافت الحكاية ما أضافت وأسرار العلاقة بين صناعة المستقبل والقص عن الماضى وما فى التعبير من حث على الوقوع فى المكتوب . ولكن هذا أمر لا ينتهى مثل وجوب التكرار والإعادة لكل كتابة . ومن الأولى بى أن أتذكر وأن أذكر ما تركته الحكاية تماما وما أخفته فى بطنها من تفاصيل ومن معنى كلى شامل .

كان الصندوق صغيرا من الأبنوس الأسود وكان عليه قفل ومفتاح ذهبى فيه ، فكأنه غير مقفول إلا بالشكل . وكانت الأوراق الخمس موضوعة واحدة فوق الأخرى ، أوراق قديمة كأنها فعلا منتزعة من الصفحات الفارغة من الكتب . وكانت كل ورقة تحمل عددا قليلا من الكلمات لا يتجاوز السطرين وكأنها مكتوبة على دفعات متقطعة بين كل منها فكر وزمن .

ولقد تحيرت كثيرا ومازلت لا أستطيع أن أجزم بمعرفة السبب الذى من أجله أخفت الحكاية المكتوبة نص الورقات الخمس . فهل كان ذلك لأنها أرادت أن تخفى المعنى الذى أرادنى أبى أن أعرفه . وهل أخفته إشفاقا علىّ من حكمها بأننى سأصير أعلم زمانى وأنا لم أصبح كذلك . أم أنها أخفتها لأن المعنى فى الحقيقة خفى لا يمكن لأحد أن يقطع على وجه اليقين بأنه قد عرفه . أم هى قد أخفتها لسبب أبسط من هذا كله وهو أننى أخفيت الأوراق ولم أطلع عليها أحدا وقد جلدتها معاً بجلد رق وخطتها فى ثيابى أنزعها وأخيطها من جديد مع كل ثوب من ثيابى التى أبلتها الأيام . لاشك أن هناك أسبابا أخرى كثيرة

لهذا الإخفاء قد يتعلق بعضها بأسلوب الحكاية وإمكانيات الكتابة وصناعة المعنى دون ذكره أو تحديده أو غير ذلك من أسباب .. لقد صحبتنى الأوراق ومازالت تصحبنى فى أيام وأماكن كثيرة وقد قرأتها وأعدت قراءتها قبل ما حدث لى وأثناءه وبعده ومازلت أعتقد أن غموضها وما فيها من إشارات لم تتكشف تماما لى وإن كنت قد بدأت أرى فى نصها المصمت كوات من نور ونبوءات تتحقق أو تحققت مما جعلنى أصير إلى أن أكون ــ كما تقول ــ قاتلا وخائنا دون أن أصبح كما وعدت أعلم زمانى فليس للعلم نهاية يقف عندها الإنسان .

لقد حملت مسئولية هذه الأوراق طول حياتى وها أنا قبل أن أقص تلك الحياة أو أعيد كتابتها أقدم لذلك بنص هذه الورقات محذرا ما استطعت كل قارىء من أن يعتبرها أوراقه أو مخاطبة له وإن كان كل أملى ورجائى ألا أكون وحيدا مكتوبا علىّ أن أحملها بمفردى :

« اعلم إذا كنت لا تعلم أنك قادر على أن تتعلم كل معرفة . والمعرفة الكاملة « حية » بالمعنيين تقتلها أو تقتلك .

« إنها طريق آخر غير طريق الخلود والسلطان . فإذا أردت الخلود احترقت وإن سلكت طريق السلطان فتذكر السيد سليمان .

يابنى المسكين طريقك إلى المعرفة هو الطريق الوحيد المفتوح أمامك . ولكنك فى نهايته تصير قاتلا عارفا خائنا كآدم ناكثا للوعد كأبيك الكبير .

يابنى المسكين كل الطرق الثلاث تبعدك عن الكينونة لأن الذى وراء الكينونة هو الحب . وليس الحب طريقا ولكنه سياحة متواصلة وانتظار مستمر للموت لا ينتهى ولا حتى به » .

وهنا وبمقتضى الأصول للإعادة يجب أن أتوقف لأبدأ من جديد .

الفصل الثانى

لقاء الملكة

□□ لقد جاءتنى المعرفة ودانت لى الدنيا « بعد شدة » ، تماما كما قال المنجمون . وقد كذب المنجمون ولو صدقوا . فالحياة مهما تنبأ بها المنجمون وتوقعها الإنسان هى غير ما يتوقع لأن وراءها معرفة وإرادة لا يلحق بها عقل الإنسان . كن الخالقة جديدة متجددة وقانونها الأزلى وهو الحدوث أو الوقوع لا تحدثه إرادة ولا يمسك به وقوع مهما بلغ العلم أو هيىء للنفس والعقل أنهما قد امتلكا الأحكام والقوانين بالمعرفة المسبقة . وإذا كانت هناك قيمة حقيقية لإعادة الكتابة للحكاية المكتوبة فهى أنها تثبت لنا ذلك وتجعلنا نمسك بهذا المعنى من الجدة والتدفق غير المنظور فى المعانى بل والأحداث .

جمعت أمى المنجمين بعد أن ولدت وبعد أن مات أبى . وبعد أن حسبوا الطالع ــ فقدرى من أول حياتى محسوب وأنا حاسب ــ وما يقابله من الكواكب قالوا لها « اعلمى أيتها المرأة أن هذا المولود يعيش أياما كثيرة ولكن بعد شدة تحصل له فى مبدأ عمره ، فإذا نجا منها فإنه يعطى بعد ذلك علم الحكمة .. » فهل كانت حياتى إذن محسوبة منذ البدء وليس لى فيها خيار . ولقد اشتغلت أو نظرت فى أواخر حياتى التى أعيشها الآن بمسألة الجبر والاختيار . واستقر فى نفسى أن من الخطأ أن نقول إن الإنسان مجبر أو مخير لأن هذه القضية غير قائمة فى الحقيقة وليس لها جواب على قدر صياغتها . فالأمر الأغلب أن الإنسان يحصل على المعنى من حياته ويحاول وهو يتتبعه أن يصنعه ليدركه . فالمعنى هو الأمر الذى يسعى إليه الإنسان قبل كل شىء لأنه بدونه لا يكون إنسانا بل يسقط بلا تميز فى بقية مصنوعات الله . وعندما يتراكم المعنى أو يخيل للإنسان أنه يدركه يحس بمشاعر الاختيار والقدرة على التصرف وهى فى الحقيقة ارتفاع إلى الفهم والمعنى ومقاربة منه .

فهل كنت مختارا وأنا أولد أو وأنا أتلقى ميراث أبى أو كلمات المنجمين أو أخضع لرغبات أمى دون أن أخضع لها . وهل خضعت لشىء من هذا الذى حدث لى فعلا بل وهل كان إجرامى وخطيئتى اختيارا ؟ إننى مازلت أبحث عن معنى ما حدث ، وحقيقة إعادة الكتابة هى ذلك . وعلى هذا فالإنسان غير مجبر أو مخير ولكنه مهيأ بخلقه للسعى وراء المعنى . وكل سعادته وشقائه درجات من التوفيق والفشل فى الامساك بهذا الأمر العصى النادر كالمعادن ، البعيد كالكواكب ، الغائر كأعماق الأرض والذى هو المعنى ..

ولست أزعم أننى قد أمسكت بالمعنى من حكايتى أو حياتى فلقد وجدت بعد كل ما حصّلت أو أعطيت من حكمة أن المعنى ظل « منعكساً لِـ كُنْ » الخالقة يتجدد ويتسع ويتلقى منها مع تغير المكان ومرور الزمان أشكالا جديدة قد تتصاعد وتتراكب وقد تفترق

وتسقط لتبدأ رحلتها من جديد من البدء الذى لا ينتهى . وهكذا فقد وجدت أن المعنى هو دائما نهاية مظنونة يتولد منها دائما بدء جديد .

لقد ظللت أكثر من سنة أقرأ حكايتى المكتوبة لأستخلص المعنى . ومر على حين ظننت أننى قد وصلت إلى صلب المعنى الذى يجمع ويستخلص الأديان السماوية الثلاث ، اليهودية والمسيحية ثم الإسلام الذى يحيط بهما معا ويقرهما فى الروح والتاريخ والأرض . فتصبح حكايتى انعكاسا لما حدث فى السماء . ولكننى وجدت المعنى الكبير ينداح ويتسع وتتلاشى حدوده وأركانه لينصرف إلى النظر والحصر لمصنوعات كن الخالقة التى وسعت السموات والأرض دون أن يؤودها حفظهما داخل الزمان وخارجه وفى المكان المحدود أو اللامتناهى . ومن البدء الجديد انصرف المعنى إلى ثراء التراث البشرى كله فى كل أصقاع الأرض وحلقات التاريخ عند اليونان والهنود وعلى أرض بابل وفارس القديمة . فهل إذا اعتبرت المعنى ضفائر مجدولة كان ذلك أقرب إلى إدراكه والامساك به أم أننى مهما ضفرته يظل منسدلا كشعر المرأة الجميلة ، كل شعرة منه فيها كل المرأة ، وكل الأنوثة وكل السحر الذى لا ينتهى ولا يمكن الإمساك به .

إننى بعد كل ما حصلت من معرفة وعرفت من تجارب وعذابات للبشر وخصائص وغرائب مصنوعات الله أبدأ من جديد بمعنى كان كامنا وراء كل معنى ، مكتوبا فى كل ما خططت من كلمات إلى الآن . إن الكينونة أسبق من كل معنى وليس كل معنى إلا سعيا متصلاً لا ينتهى لمعاينتها والإقرار بكينونتها . فوراء الكينونة ، بمعنى الحركة إليها ، هو كل ما يمكن الإمساك به من معنى .. وهل السياحة فى الحب التى خلفها لى أبى ومازلت لا أعرفها شيء آخر غير ذلك ، أم أنها هى نفس المعنى وأننى إذا وصلت إليها وصلت للنهاية التى هى بدء لا ينتهى ...

وضعتنى أمى فى الكُتَّاب لأتعلم شيئا من العلم فلم أتعلم فأخرجتنى من المكتب وحطتنى فى الصنعة فلم أتعلم شيئا من الصنعة و لم يطلع من يدى شيىء من الشغل . وبعد أن بكت أمى متحيرة من صدامها مع المكتوب نصحها « الناس » ، وقد رأت أن لديهم من الحكمة ما ليس عندها ، أن تزوجنى . وهكذا ، وبسرعة أراد الناس أن يبتلعوا حياتى ومعناها وأن يردوها إليهم لتصبح جزءا لا يفترق عن مجموع حيواتهم . قالوا لها إنه إذا تزوج فقد يحمل « هم » زوجته ويتخذ له صنعة .

ولقد ظللت طول حياتى لا أعرف كيف يقبل الناس أن يختزلوا حيواتهم فى صنعة !!

وإن كنت أرى وأعرف أن هذا هو طريقهم الوحيد فى الحياة . وأظن أننى لم أحمل « هم » زوجتى لأن حياتى كانت متجهة إلى « همّ » آخر لم أعرفه و لم أفهم معناه إلا بعد أن كادت تلك الحياة أن تنتهى حين قاربت أن أدرك ميراث أبى وأشرفت على التبصر بهم الكينونة .

وليست حياتى المكتوبة أو المعادة إلا التدرج فى التعلق بهذا الهم والتعرض لصعوباته ومخاطره . فقد ظل عجزى عن اتخاذ « صنعة » هو « الصفة » التى أصبحت لى . وكم لاقيت من « الصفة » فى مطلع حياتى وأواخرها ..

كنت أخرج من بيتنا لأخلص من همّ أمى وزوجتى وأطلع إلى الحقول ووراء الحقول إلى الغابات ، أريد أن ألمس وأن أكون جزءا من الأرض الندية بالندى أو المروية بالماء المنداح فيها أو أن أضع جسمى على الحجر لأعرف صفته وصفتى التى لم أعرفها بعد . وكانت الأشجار تنتصب فى عينى وفى صدرى وتمد جذورها داخلى ، وأحس أجنحة الطيور أو حوافر الأنعام قطعا أو لحظات من بدنى وزمانى وكان المعنى الذى لا أدركه يترجرج دائما فى روحى كومضات الماس أو ألوان ما سمعت عنه من أحجار كريمة . وكانت السماء والشمس والقمر والنجوم قريبة منى دائما وكأنها فى أصابعى ومع ذلك أدرك محزونا أو فرحا حسب الأوقات والأشكال ، أنها جميعا حرة ومستقلة ومكتفية بذاتها لا تريد منى حبا ولا تريد أن تمنحنى معنى .

وكنت أرى ويرانى فى خروجاتى التى لا تنتهى جماعة من الحطابين أصحاب الصنعة . ومع أننى لم أكلمهم و لم يكلمونى إلا بالسلام فقد تحركوا بالعطف البشرى الذى ما يلبث أن يصبح مؤامرة وكراهية ، إلى أن يدخلوا فى حياتى ليصنعوها أو ليخلصوا منها كما دخل إخوة يوسف عليه السلام حياته فصنعوا أحداثها الأولى التى بدأت بها .

وفات الحطابون على أمى وقالوا لها « اشترى لابنك حمارا وحبلاً وفأسا ويروح معنا إلى الجبل فنحتطب نحن وإياه ويكسب ثمن الحطب له ولنا وينفق عليكم ما يخصه .. » .

وتكرُّ الأحداث مسرعة مع الأيام حتى تصل الحكاية إلى تصوير البدء من جديد فى أحداثها مستخدمة كلمة « فاتفق » التى تدل على مفاجأة تجمع مجموعة من الأحداث توجه الأفراد والمعانى إلى ما تريده الحكاية من معنى أو تجربة . فيتفق فى يوم من الأيام أن تسقط الأمطار شديدة ويسرع الحطابون وأنا معهم إلى مغارة عظيمة فى الجبل نحتمى فيها حتى إذا أصبحنا فى مأمن ، وكأنما أريد دائما أن أكون وحيدا ، أضرب الأرض بجسمى أو فأسى فأنعزل عنهم ضاربا أرض المغارة بالفأس حتى أحسها خالية من تحت الفأس فأظل أحفر لأصل إلى بلاطة وفيها حلقة ...

وتكتمل هذه الحلقة من الأحداث بأن أشد الحلقة وترفع البلاطة لأكشف تحتها جبا ملآن عسل نحل . نعم ، لقد كشفت لهم عن هذا العطاء الربانى المخزون وكأنه كنز محفوظ فكأنما تجمع فيهم كل ما فى نفوسهم من طمع وكل ما فى قدراتهم من صنعة التجارة . وظللت بأمرهم أرفع العسل لهم فى مظاريف ليبيعوه فى المدينة وقد تركونى أحرس لهم الكنز الذى يعرفون بينهم وبين أنفسهم أنه لى . حتى إذا فرغ العسل وأرادوا الانفراد بما حصلوا من ربح تركونى فى الجب لم يسحبونى لأخرج وانصرفوا لأمى يحكون لها قصة الذئب الذى أكل يوسف وأضافوا أنه قد أكل الحمار ...

وهكذا صرت وحيدا مقطوعا عن الناس بما لهم من صنائع محجوبا عن الدنيا بما فيها من هموم وأصبحت أمام صفتى التى لا أعرفها ولا ينفع فى تبينها بكاء أو كمد .

ولكن الأحداث كانت قد اتخذت اتجاهها وتعرت لروحى جوانب من الكينونة لم أميزها بعد ولكننى أصبحت مستعدا مهيئا لأن أميز « الصفة » التى تفصح بها عن نفسها .

وهذا التبين لما رأيت والتهيؤ بداخلى لتمييزه هو الذى يجعلنى أقرب إلى أن أقطع بأن الأمر لم يكن حلما مررت به بعد طول البكاء والوحدة فى الجب . فليس هناك ما يمنع أن تقرر الحكاية أنه كان حلما لو أنه كان كذلك . ومعنى الحكاية لا يتغير سواء كانت الأحداث حلما أم كانت واقعا فريدا متميزا فالحلم رؤية تكشف المعنى ، والواقع منظر يجسد المعنى . والأحداث والكلمات فى الحالين مثقلة بالدلالة والمغزى . وما الغرابة فى أن يكون الواقع غريبا مزدحما بالألوان والأشكال والأضواء والحكمة المستترة وهو دائما كذلك وكان الله دائما قادرا على أن يخلق ما لا تعلمون . لو أننا كنا نستطيع بأى علم أو أى تحليل أن نحيط بالكينونة لاخترنا أن نسمى ما لا نحيط به حلما أما ونحن فى الواقع غير محيطين بكل ما هو كائن فكل ما يكون قد يكون حلما أو واقعا على حد سواء . إن الأحداث والكلمات فيما حدث لى تتفق وتتجمع وتأخذ اتجاها ومعنى وهذا كل ما يعنينى أو فى الحقيقة ما أنا قادر على حكايته دون أن أشغل نفسى بقضية الحلم والواقع كما رفضت أن أشغلها بقضية الجبر والاختيار .

لقد اتفق لى وأنا فى الجب وحيدا أن وقع عقرب كبير قمت فقتلته وإن وجهنى للتساؤل من أين وقع هذا العقرب وقد كان الجب مليئا بالعسل . وما أحلى هذا التناقض الذى هو فى روحى أحلى من العسل لأنه هو الذى قادنى إلى تتبع مكان سقوط العقرب وتبين النور الذى لاح من مكان سقوطه . حتى إذا نهضت لأوسع المكان تبينت طاقة تفضى إلى دهليز عظيم وفى نهاية الدهليز باب عظيم أيضا من الحديد الأسود وعليه قفل من الفضة وعلى ذلك القفل مفتاح من الذهب .

كان الباب مثل صندوق أبى له قفل ومفتاح بمعنى أنه لم يكن مغلقا فى وجهى . فهل هناك غرابة فى أن أفتح الباب وأن أعبر إلى داخله .

لقد أصبحت فى الداخل ، وداخل هذا الداخل بدأت حياتى وانتهت . وأظن أنه لكل حياة باب عظيم عليه قفل ومفتاح ، والصعب النادر والذى هو أشبه بالحلم أن يصل المرء إلى هذا الباب . حتى إذا وصل ودخل وعبر ، صار إلى شبه ما صرت إليه ورأى جانبا آخر من الكينونة غير الذى رأيت .

تمشيت ساعة فى الداخل الذى عبرت إليه حتى وصلت إلى بحيرة عظيمة أيضا ورأيت وراء تلك البحيرة شيئا يلمع مثل الماء . فلم أزل أمشى حتى وصلت إليه فرأيته تلا عاليا من الزبرجد الأخضر . نعم ، مثل الزبرجد الأخضر وبدأت أحس لما أرى طعما فى فمى وكأننى أكلت كل عسل الجب . وتقدمت منتشيا إلى التل فوجدت عليه تختا منصوبا من الذهب مرصعا بأنواع الجواهر ، وحول التخت كراس منصوبة بعضها من الذهب وبعضها من الفيروز وبعضها من الزمرد الأخضر .

وقد عرفت فى روحى أنواع هذه الجواهر بأسمائها مع أننى لم أكن قد عرفتها فى حياتى إلا قطعا صغيرة من الفصوص ، تتحلى ببعضها النساء العابرات فى الطريق ، فلم يكن لأمى أو لزوجتى شيء منها . ولكن الجواهر لم تستوقفنى طويلا ، لأننى عرفتها وعرفت أنها بكل أحجامها لا تتغير ، وأن كل ما يلفت النظر إليها أنها قد أصبحت كما هائلا عظيما ولكنها مثل كم العسل فى الجب لم تثر طمعى و لم تحرك فىَّ رغبة للصنعة ، بل نظرت فى عددها . وأحسست بقدر من الثقل والخوف وأنا أعدها وأجدها اثنى عشر كرسيا ، فتذكرت مرة أخرى كواكب يوسف وظللت متعجبا حتى غلبنى النوم .

فهل حلمت مرة أخرى حلما داخل الحلم أم أننى صحوت من نوم واقعى على نفخ وصفير وهرج عظيم . فلما فتحت عينى رأيت على الكراسى حيات عظيمة ، فكل شيء هنا عظيم . ولهذا حصل لى من ذلك فزع عظيم ونشف ريقى من شدة الخوف حتى نسيت طعم العسل الذى كان يملأ فمى قبل أن أنام .

وليس هناك ما يدعونى أن أفصِّل فى وصف خوفى وأنا أرى عينى كل حية تتوقد مثل الجمر وهى فوق الكراسى ومرَّ ما يقرب من ساعة وأنا فى ضوء هذه العيون الذى جعل المكان حولى وكأنه فى ظلام دامس إلا من بؤرها المتعددة .

وبينما أنا واقف أنتظر أقبلت حية أكبر من الحيات الجالسة وعلى ظهرها يتوازن « طبق

من الذهب فى وسطه حية تضيء مثل البللور ووجهها وجه إنسان وتتكلم بلسان فصيح .. »

لقد رأيت أول مارأيت جمال وجهها ولا أظننى قادراً أبداً على أن أصف هذا الجمال . لم يكن وجهاً نسائياً جميلاً ولكنه كان فى الحقيقة جمال كل النساء . وعلى الرغم من أننى لم أعرف من جمال النساء إلا ما كان فى أمى وزوجتى وهو ليس بالفريد فقد كانتا مثل كل النساء فى حارتنا وشوارعنا ولكن الوجه الذى رأيته كان يجمع جمالاً ليس له مثيل لأنه قد ملأنى معرفة وشعوراً بكل الجمال وأجمل ما فى كل جمال . وعندما يصبح الكل أمامك لا تستطيع أن تلجأ إلى التشبيه أو إلى تحديد الأجزاء ولكنك تنظر وتنظر ويرتد بصرك بما رأى ليفرض عليك أن تنظر وأن تظل صامتاً تنتظر .

وهكذا سمعتها تقول بفصاحة فى صمت مثل انصباب العسل :

السلام عليكم ..

وتقول الحكاية إننى رددت السلام ولكننى لا أذكر صوتى وإن كنت أذكر السلام الذى ملأ نفسى وجعلنى أفقد كل خوف وأرد السلام فى داخلى دون أن أسمع صوتى أو أذكره .

ونزلت من الكرسى حية أخرى فاقتربت من الطبق على الحية التى تحمله وحملت الحية التى فوقه وحطتها على كرسى فى الوسط فهبطن جميعاً من كراسيهن لتحيتها وللدعاء لها بلغة لم أفهم منها إلا أنها دعاء وتحية . حتى إذا جلست وأشارت إليهن بالجلوس تكلمت مرة أخرى بلغتها العسلية وقالت :

ــ لا تخف منا أيها الشاب فإنى أنا ملكة الحيات وسلطانتهن ..

وانتشر فى قلبى من سلطان صوتها هدوء وسكينة وأحسست بأمان لا تمنحه إلا ملكة وسلطانة وجلست عند أقدام كرسيها أتطلع إلى جمالها وهى تأمر لى بسماط عليه « تفاح وعنب ورمان وبندق وجوز ولوز وموز » إذا أكلت من أى منها أحسست بطعمها جميعها فى فمك وامتلأت عينك بأضواء وظلال جلودها وانفك برائحتها الذكية .

وظللت وكأننى قد دخلت حلماً ثالثاً أكلت حتى شبعت وهى تنظر إلى بجمالها وتنتظر أن أشبع وقبل أن أنطق أو أن أخبرها سألت وكأنما تواصل صب العسل ولا تنتظر الإجابة :

ــ « ياحاسب ، من أين أنت ومن أين أتيت إلى هذا المكان وما جرى لك ؟ . »

وكانت هذه أول مرة أعرف فى اسمى معنى الحساب وضرورة أن أقدمه . وكانت هذه المرة أيضاً أول مرة أبدأ فيها إعادة حياتى بالقول أو الكتابة ولكننى لا أملك ، مع حلاوة اللقاء والحساب ، أن أعيد بالتدقيق ما قلت وما حكيت ولكننى فيما أعتقد ، قد بدأت أضع يدى على ما فى حياتى من معنى .

وفى نهاية كلامى الذى أظنها قد عرفته دون أن تسمعه أصدرت حكمها أو أمرها فى تؤدة وفى كلمات كالجواهر النادرة :

ـــ « ما يحصل لك إلا كل خير ، ولكن أريد منك أن تقعد عندى مدة من الزمن حتى أحكى لك حكايتى وأخبرك بما جرى لى من عجائب .. »

ووجدت نفسى دون خوف أو تردد أحس أن حياتى وحكايتى هى التى بدأت وأنا أقول لها بلا تلعثم :

ـــ « سمعاً وطاعة فيما تأمرين به »

وهنا ، وكما تقضى أصول الإعادة يجب أن أتوقف لأبدأ من جديد .

الفصل الثالث

سلطان « اعلم »

□□ إذا لم تبدأ بالصدق غلبك الكذب والزور واشتد وتراكم من حولك حتى يصير ظلاماً دامساً فلا ترى ولا تعرف أن تقرأ أو تكتب . وعلى الرغم من أن هذه حقيقة معروفة مجربة أو نصيحة حكيمة صادقة فإن البشر لا يتبعونها إلا نادراً ولماماً . وعلى الرغم من أن كل من يبدأ فى كتابة مذكراته أو إعادة حكاية حياته يعد بهذا الصدق فإنه فى الحقيقة لا يفعل ذلك ، أو ينوى ولا يكمل الطريق . وقد سألت نفسى وأنا أعيد الحكاية بعد أن كادت حياتى أن تنتهى ، لماذا يحدث ذلك . وما هى الصعوبة فى جوهرها وحقيقتها ؟

وقد لا أصل إلى إجابة كاملة على سؤالى ولا أظن أن هناك إجابة كاملة . فالإجابات الممكنة تتجمع متكسرة لكل منها أسباب ومصادر . ومع تكسرها وتعددها قد يملُّ العقل منها أو يكلُّ فإما يتوقف عن حصرها أو يكتفى بهذا الوعى الغامض بوجودها دون أن ينتقل من ذلك إلى جمعها فى معنى واحد أو سبب أصيل أول .

فنحن عندما نكتب ونريد أن نعيد ما حدث أو أن نحكيه نكتب أو نتكلم فى زمان غير الزمان الذى حدثت فيه الحكاية ، وحكايتها بدون زمانها هو أول الكذب المفروض الذى لا مفر منه . وأنا بما أقدم من أفكار حول إعادة الكتابة والحكاية وما أقرره من أحكام حولها أريد بهذا الوعى ، الذى قد يزعج من يريد متابعة الحكاية ، أن أؤمن خطواتى وأن أفرض على نفسى محاولة الصدق حتى وإن فشلت .

وكثيراً ما يكذب الناس — وقد عرفت ذلك بوضوح فى أواخر حياتى التى أكتب فيها — لأن لهم مصلحة فى ذلك ، أو لأنهم يريدون أن يحققوا مصلحة بما يحكون عن الماضى فيما هو مقبل من أيامهم . فللناس هموم كثيرة ولكل هم شروط وأشكال يصطنعها الناس فيكذبون ووراء كل هم رغبة فى مصلحة يضطرون لاختلاق الطرق لتحقيقها ، فإذا كان البشر ، كل البشر ، عاجزين مضطرين للكذب فهل نسلم النفس لهذا العجز والاضطرار وكأنه مكتوب وكأننا مجبرون ونحن فى الحقيقة غير ذلك . هل نرتكب إذن ما نرتكب فى حياتنا ونكرره فى الكتابة وإعادة الكتابة أم نتخذ من منحة الإعادة التى يهبنا إياها الله المنَّان وسيلة لنتخلص من العجز والاضطرار ونتطلع ، على الأقل نتطلع ، إلى أفق آخر يتحقق فيه الصدق كل الصدق أو على الأقل بدايته المحصنة من التكسر والتفتت ، أليس كل بنى آدم خطاءون وأليس خيرهم التوابون ... وما التوبة إن لم تكن المعرفة بالخطيئة ، وما المعرفة للخطيئة إلا الإدراك المرافق أو اللاحق للمعنى من الحياة .

وإذا كانت الكتابة أو إعادة الكتابة ، هى كما تبينت ، سعيا وراء المعنى فإن المعنى الذى

أكاد أمسك به لحياتى ، وهو أنها سعى وهمّ وراء الكينونة ، يكاد أن يكون هو نفسه حمايتى وقوتى ومناط أملى فى تحقيق الصدق أو على الأقل مقاربته .

أنا إذن عاجز عن قول الصدق أو مجبور أو مضطر لأن أرتكب الكذب . لقد تخايلت لى وأنا أحاول هذه الإعادة صور كثيرة للكتابة وأشكال عديدة للتعبير . كان بعضها يستهدف تقوية التأثير والوقع ، وبعضها يسعى للترويح وعدم الإملال ، ومنها ما كان يطمح فى أن يكون سلاحاً للتهكم والكشف عن العيوب فى الآخرين ، ومنها ما كان يريد أن يربط بين واقع الحكاية وواقع الحياة بأمل مضاعفة المعنى أو الحكمة . وكلها كما ترى فيها شيء من النفع أو الخير ، ولكنها كلها كاذبة مخالفة للصدق ولما وقع . فإذا كنت ــ يامن تقرأ ــ تجد فيما أكتب أو أعيد قدراً من الصعوبة أو الإملال أو شيئاً من التعسف والتكلف فأنا أتكلف الصدق والصدق تَكْلفته ثقيلة ..

لم تكن ملكة الحيات صادقة عندما قالت لى إنها ستحكى لى حكايتها وما جرى لها .. فهى فى الحقيقة لم تحك لى حكايتها وما حكته لى كان حقاً أمراً غريباً عجيباً لكنه يتعلق بما جرى لآخرين من مصنوعات الله ومن أصحاب حيوات غير حياتى أو حياتها ، غير أن ما حكته لى هو فى الحقيقة كل ما جرى لى حتى أصبحت أنا هو ما جرى لها فى حياتها ، ولم تعد حياتها إلا ما جرى لها معى حتى قتلتها ، أو كنت السبب فى قتلها ، وشربت رغوة لحمها المغلى . نعم . قتلتها وشربت رغوة لحمها المغلى فتدفقت فى قلبى ينابيع الحكمة وتبينت فى آخر عمرى ضرورة إعادة الكتابة وكدت أن أمتلك أو أن أرث ميراث أبى .

ولكن انظروا مخاطر الصدق ونتائجه . لقد كشفت الغطاء عن نهاية الحكاية ولم أحكها كما وقعت بزمانها الخاص . لقد فرضتُ زمان الكتابة والإعادة عليها وأنا أعتقد أن فى هذا صدقاً حقيقياً مهما كان فيه من تعسف ، بل إننى الآن أعجب من كل من يحكى بزمان غير زمان الكتابة متصوراً أنه يستطيع أن يستعيد الزمان الذى لم يعد من الممكن أن يعود إلا كذباً واختلاقاً وتحايلاً فى الشكل والتعبير .

غير أننى ، تحرياً للصدق ، يجب أن أقرر أنه من المستحيل بل من المتناقض أن تحكى الحكاية بزمان الكتابة كلية . فلابد لك من أن تختار وأن تحدد ترتيباً للأحداث والوقائع كما حدثت أو كما أدركتها بعد أن حدثت . وعلى هذا يصبح زمان الكتابة والإقرار به إطار الصدق الذى تلتزمه ويصبح زمان الحكاية غير منفصل عنه بل يصير فى تفاعل وجدل مستمر معه . وهذا هو الشكل الذى التزمته إذا كنت لم تدركه إلى الآن .. إننى لا أعرف من أحدث ولكننى ألتزم الصدق وأحب أن أسمع نفسى وأنا أقرره .

لم تحك لى ملكة الحيات حكايتها . وأنا مازلت لا أعرف هذه الحكاية ولم يحدث أن سألتها كما سألتنى من أنت ومن أين أتيت وإلى أين أنت ذاهبة . وستظل الملكة سراً غير مفضوض فى هذه الحكاية إلا فيما يتكشف من حياتها ومعناها فى حكايتى أنا .. وسوف لن أخفى فى نفسى أى شىء عرفته بنفسى وفيها ، عنها وعن كينونتها التى ستظل ـــ كما قلت ـــ سراً غير مفضوض .

عندما انفردت بى وقررت أن أبقى عندها ورضيت طائعاً لأمرها قالت لى فجأة ومباشرة ودون أية مقدمات أو شروح :

« اعلم أنه كان بمدينة مصر .. » وبودى لو أمسك بأى وسيلة من وسائل التعبير عما أحاط قولها « اعلم » من قوى لا أعلمها ولا أستطيع تحديدها . ولقد قالت « اعلم » فانداح فى روحى مكان فسيح تصبح فيه الكلمات أحداثاً وتصبح فيه الأحداث المحكية وقائع فى روحى تصنع حياتى فلا أكاد أميز بين الحكاية وحياتى إلا وأنا أحكيها أو أعيدها .

قالت لى فجأة ومباشرة : « اعلم أنه كان ...» فإذا بالذى كان يصبح وكأننى كنته . لقد قالت لى فجأة ومباشرة « اعلم » فإذا بى أتشكل بما تقوله وما يطلب منى أن أعلمه وإذا بى أمتلك الزمان والمكان الذى يحدث فيه ما تحكيه وكأنه ـــ أو هو فى الحقيقة ـــ هو ما جرى لى . لقد قالت لى « اعلم » فى صوت وسلطان ومقدرة أحالت الحكاية حياة وجعلت السماع تجربة .. وصيرت التجربة معتقداً ومعنى .. وكم كنت أود أن أشبه اعلم هذه بكلمة أخرى ولكننى أستغفر الله على النية وأحجب التشبيه صادقاً وعاجزاً عن البوح به .

قالت لى فجأة ومباشرة : اعلم أنه كان بمدينة مصر ... وحكت لى عن رجل من بنى إسرائيل اسمه بلوقيا . وإذا كانت الحقائق الأولى الأخرى التى حكتها عنه تبدو مضطربة متعارضة فهى تقول أن أباه كان ملكاً من بنى إسرائيل . ولم تعرف مصر ذلك إلا أنه كان ولاشك يهودياً عاش فى مصر وبدأ منها حكايته .. وتحكى ملكة الحيات أن أباه عندما مات قال أشهد أن لا اله إلا الله ولم يكمل الشهادتين ، وأنه مثل أبى قد ترك لابنه إرثاً فريداً صنع حياته وجعلها أيضاً تجرى لى .

فقد فتح بلوقيا خزانة من خزائن أبيه التى تركها « فوجد فيها صورة باب ففتحه ودخل ، فإذا هى خلوة صغيرة وفيها عمود من الرخام الأبيض وفوقه صندوق من الأبنوس فأخذه .. وفتحه فوجد فيه صندوقاً آخر من الذهب ففتحه فرأى فيه كتاباً ففتح الكتاب وقرأه فرأى فيه صفة محمد ﷺ ... »

هكذا إذن كان الرجل يخفى سراً عظيماً عن ابنه وأهله ويضن به عليهم جميعاً ، ولكنه قد ترك لابنه ميراثاً صنع حياته . فعندما « قرأ بلوقيا » هذا الكتاب وعرف صفات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تعلق قلبه بحبه .

وإذا كان قلبه قد تفجرت فيه الكراهية للأب الذى أخفى هذه الحقيقة العظمى على ولده فإن الحب الذى فاض فى قلبه قد جرف كل شيء أمامه فأصبح همه الوحيد الذى صار كل حياته .

وتأملت وأنا أسمع أو أعلم ما جرى لبلوقيا كيف يتوحد الهمّ فى القلب من العلم بالصفة وكيف يستحيل الحب إلى سياحة لاتنتهى .

فقد نزع بلوقيا ثيابه ولبس عباءة وزربونا وقال لأمه : ياأمى إنى رأيت فى خزائن أبى كتابا فيه صفة محمد ﷺ وهو نبى يبعث فى آخر الزمان وأنا أريد أن أسيح فى البلاد حتى أجتمع به فإننى إن لم أجتمع به متُّ غراماً فى حبه ...

وقبل أن تكمل الملكة الحكاية كنت قد بدأت فى داخلى تلك السياحة الجبرية فى مصنوعات الله متعقباً ما قد يبدو فيها أو عليها من صفات الحبيب .

الفصل الرابع

السياحة فى الكينونة

□□ لم أكن ــ كما قلت ــ أسمع عن شخص آخر غير نفسى . ولكننى كنت أحس هذا الكيان الجديد منفصلاً مفارقاً وكأننى أرقبه . فى أحيان كنت أراه وكأنه قطعة فريدة من الحجر بشكلها الخاص وحجمها العظيم تندفع مدفوعة على طرف جبل عال وكأنما يهبط بها سيل متدافع . وأحياناً أخرى كانت الحجرة الكبيرة تستحيل موجة فريدة تعلو وتنخفض وتدفعها الرياح وشيء خاص بها فى داخلها لتصير مساحات واسعة أخرى من المياه ولكنها تظل مع ذلك متميزة فريدة . وفى مرات أخرى كنت أحس هذا الكيان المستقل المفارق لنفسى يرتطم بجموع من المخلوقات ومن مصنوعات الله التى لا أعرفها فيضيع وسطها تارة وتارة أخرى يحتد تميزه واستقلاله ليجعل صفات هذه المخلوقات والصنائع أكثر وضوحاً وتميزاً .

وكنت فى ساعات كثيرة ، عندما تتركنى الملكة لأنام بعد أن تأمر بإطعامى طعامها الذى أسرع بابتلاعه أو جرشه وقضمه دون وعى ، أظل أسمعها وأنا نائم وكأنما أحلم بما سمعت وأكرره فى حلمى حتى يكاد أن يصبح تذكراً .

وما أكثر ما رأيت فى الحكاية من وديان وجبال ووحوش وطيور من البر والبحر ومخلوقات كالبشر ليسوا بشراً ، معلقين من رءوسهم كالأثمار فى أشجار عظيمة أو واقفين يلتفتون فينشقون إلى نصفين ينظرون يميناً ويساراً ويحركون أذرعا هنا وهناك وأحيانا كنت أخوض فى الحلم بعينى أو بخوفى الكامن فى داخلى معارك بين كتل غريبة من الحيوان والبشر أو من الجان الذين هم كالحيوان أو البشر .. وأراهم يقتتلون ويقعون صرعى دون أن أعرف بوضوح سر القتال وإن كنت أدرك أن الجانب المنتصر هو دائماً قريب منى أو خاص بى وأن نهاية المعركة تجعلنى أمضى من جديد نحو آفاق أخرى ومصنوعات جديدة من مصنوعات الله ..

كانت الليالى تكر وأحداث حياتى التى أسمعها لا تتوزعها الليالى ولا تنقسم إليها فلا أستطيع أن أحددها أو أن أدرك تعاقبها بوضوح . فلم تعد الليالى بأرقامها مراحل أو علامات فى طريق ، لأن الطريق الذى تحدد كان سياحة مفتوحة تتعدد فيها الطرق وكأن هذه الطرق تتحرك إلى مفارق متعددة لا يقطعها المرء ولا يصل إليها بل هى التى تقوم أمامه وهى التى تصل إليه .

ولست أدرى بوضوح إذا كان ما أخطه الآن من كلمات هو إعادة للحكاية ولكتابتها كما كنت أقصد أم أنه صناعة للحياة على نحو آخر غير ما تصنع به الحياة وفى زمان ومكان غير اللذين نعرفهما فيما يُقص ويُحكى من تجارب أو حكايات وفى أوقات لا حقه للقص

مثل الصباح ، ولكنها أشبه باللبن السائل كنت كأنما أوقظ بدفعات حميمة فى جسمى ليست من أصابع أو أيد ولكنها لمسات مع ذلك هنا وهناك فى بدنى ومواضعه الخفية وكأنها ليست من الخارج بل نابعة من البدن نفسه . وعند ذاك ، وعندما أدرك أننى أستيقظ كنت أدرك الملكة صامتة ووجهها البلورى تعلوه ابتسامة كأنما تحسب الزمن أو تخبرنى بالمكان دون كلمة أو اشارة . وأصمت أريد أن أظل متأملاً فى وجهها الجميل فتتركنى أنظر وقد أغمضت عيونها فأرى حولهما أشبه بالكحل يحدد جمالها ويسبغ عليها سحراً ونشوة يسريان فى بدنى وكأنما التفت على أحضان جسدانية تمنح البدن اكتمالاً وراحة وبلوغاً إلى ذروة لا أعرف كيف بلغتها . فإذا أحسست هذه الراحة تحركت كلمات اللغة فى صدرى كأنها نمال عظيمة وتقدمت فى حلقى وعلى لسانى تريد أن تصنع أسئلة . فإذا بلغت هذا الحد من القلق وكدت أستجمع اسمى وأحسب ما مر من حياتى انسال صوتها العسلى من جديد وعدت إلى السياحة دون أن أجرؤ على الكلام أو السؤال .

ولم يكن هناك سؤال واحد بل أسئلة كثيرة مثل طرق الحكاية ولكننى كنت أدرك من سكينة وجهها وجماله أن للسؤال وقتاً لم يحن بعد وأنها لاتحمل لى غضباً أو حكماً على يعدلنى عنها لأننى فكرت فى ذلك أو جاء إلى خاطرى . فأحس بسعادة غامرة تأخذنى بعيداً عن النمال فى جوفى وهى تنظر لى بعيونها الواسعة وقد فتحتهما تماماً فرأيت فيها ما كنت أرى وأسمع من معان وحكايات وأتحقق أننى فى هذه العيون داخل ما أسمع وأرى ، أسمع وأرى نفسى ..

لقد سمعت بلوقيا ورأيته فى صفته الجديدة يخرج سائحاً نحو الشام دون أن يدرى به أحد من قومه و« سار حتى وصل إلى ساحل البحر فرأى مركباً فنزل فيها مع الركاب وسارت بهم إلى أن أقبلوا على جزيرة فطلع الركاب من المركب إلى تلك الجزيرة وطلع معهم ثم انفرد عنهم فى الجزيرة وقعد تحت شجرة فغلب عليه النوم فنام .. »

كنت أرى أفعاله من سير ونزول وطلوع وانفراد وقعود ونوم تتلاحق على بدنى كأنها ظلال تمتد فتخفينى وتظهره ، وتخفيه وتظهرنى وكأننا لحظات تتعاقب فى زمان واحد . ومع اللحظات التى تتلاحق متقطعة فى عيون الملكة ، تحجبها وتكشفها حركة الأهداب السوداء الطويلة ، كنت أتعلم شيئاً فشيئاً معنى السياحة التى أسلم لها بلوقيا روحه وأطلع هنيهة وراء هنيهة على جوانب الكينونة التى يتحرك فيها دون عائق من زمان أو لغة .

وكأنما كانت الملكة تريد أن تمهد للقائها به الذى كان سؤالاً فى نفسى يظهر ويختفى مثل الذى أرى فى عيونها فإذا هو بى فى جزيرة تتحرك فيها حيات كبيرة بطيئة عالية الجسم

وكأنها جمال فى صحراء . وإذا بها جميعاً تصيح بالتهليل والتسبيح تذكر الله عز وجل وتصلى على محمد . ويسألهم بلوقيا : « من أين تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم » . فلم تجبه واحدة منهن ولكن جموعهن كانت تنطلق فى نشيد واحد يقلن فيه كلاماً متقطعاً يتردد فيه اسم محمد و « أن اسمه مكتوب على باب الجنة ولولاه ما خلق الله المخلوقات ولا جنة ولا نارا ولا سماء ولا أرضا .. » وكنت أراها جميعها أمامى كما تأتى فى النشيد متلاحقة تحركنى أنا وبلوقيا فى تلك السياحة التى لا تنتهى داخل ما خلق الله ..

ويشتد العشق الذى يشب كالنار فى نفس بلوقيا وأكاد أحترق به فأنصرف عن عيون الملكة وكأنما أستدعى بذلك نمال الكلام واللغة فى داخلى وأسألها غير قادر على أن أمنع جيوش النمل التى تعترك على شفتى .. متى .. وأين .. التقيت ببلوقيا ..

ولا تلتفت الملكة لسؤالى لتجيب عليه ولكن أهدابها تتحرك منسدلة مرتفعة فأرى بلوقيا وأتحرك فى « جزيرة أخرى » فيها عدد لاحصر له من الحيات كباراً وصغاراً وكأنها كلمات اللغة أو نمالها التى أعرفها فى نفسى . وبين الحيات كانت « بيضاء أبيض من البلور — وهى جالسة فى طبق من الذهب وذلك الطبق على ظهر حية مثل الفيل وتلك الحية ملكة الحيات وهى أنا .. »

ولم أكن سمعتها من قبل تقول أنا قط فتدافعت كلماتى مسرعة وكأنما أمسك بلحظة قد لا تعود وسألتها دون معنى : وأى شىء كان جوابك مع بلوقيا ..

« قالت .. اعلم أنى لما نظرت إلى بلوقيا سلمت عليه فرد السلام وقلت له . من أنت وما شأنك ومن أين أقبلت وإلى أين تذهب وما اسمك »

وسمعت بلوقيا يردد ما أعرف عن سياحته وكأنها الإجابة عن كل الأسئلة . ورأيتنى أسألها وكأنما هو الذى يسأل :

« .. أى شىء أنت وما شأنك وما هذه الحيات التى حولك .. فقلت له أنا ملكة الحيات وإذا اجتمعت بمحمد فأقرئه منى السلام ثم إنه ودعنى ونزل فى المركب ..» وبينما أرى بلوقيا ينفتح له الكون وينزلق فيه مختفياً عن عيونى فإذا بى أقف منتصباً أمامها وكأنما أمنع الحكاية والزمن ويتدفق منى الكلام فى جمل متقطعة وكأنها قطع متقطعة من الكون تردها على بسرعة وكأنها تعاقبنى وتحرمنى من الرؤية :

— هل أخبرك بلوقيا بصفة محمد ؟

— قال لى أنه قرأها فى ورقات أبيه .

ـ فماذا كان فى هذه الورقات ؟
ـ صفة محمد عليه السلام .
ـ فهل وصفه لك ؟
ـ وصفه لنفسه فخرج سائحاً فى حبه .
ـ فهل يمكن أن يصفه لى ؟ .
ـ ابحث عنه واسأله .
ـ وأين هو الآن ؟ .
ـ سائح فى حب محمد عليه السلام ..
ـ فأين هو الآن ؟ .
ـ اتبعه واسأله .
ـ فإذا سألته هل يجيب ؟ .
ـ سيقول لك من هو ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب .
ـ فإلى أين هو ذاهب ؟
ـ سائح فى حب محمد عليه السلام .
ـ وإلى متى يظل سائحاً ؟ .
ـ إلى أن يلقاه .
ـ فإذا لقيه ..
ـ يظل سائحاً فى حبه .
ـ هل بلوقيا سلطان عظيم ؟
ـ لا ..
ـ هل هو خالد ؟ .
ـ لا ..
ـ فأين محمد الآن ..
ـ قبره فى المدينة .. وأنت تعلم ..
ـ نعم أعلم .
وسكت ورحت فى سبات عميق وكأننى فى قبر لا قرار له .

الفصل الخامس

فتنة سليمان

□□ هل معظم مايحكى من قصص يحكى عن الآخرين وليس عن القاص أم أن العكس هو الصحيح وأن كل ما يحكى هو حكاية النفس . ؟ لقد مر وقت طويل ، أيام ، سنين ، مسافات أو أكوان ، عبرت جميعها على هذا الملقى فى القبر بلا حاضر أو وعى ولكننى أذكر أن أحداثاً جساماً كانت تحدث فى جسمى وروحى بلا تعاقب واضح ولا معنى محدد . كنت موجوداً عارفاً بكينونتى أنا منفصلاً عن كل كينونة أخرى إلا تلك التى أطلعتنى عليها الملكة أو شهدتها مع بلوقيا . كانت حكايتى قد أصابها التوقف الذى هو أشبه بالموت وأصبحت لاأملك منها إلا ماتحكيه الملكة وما أراه وأسمعه فى عيونها وأنا صامت حالم .

لقد أضعت حياتى فلم أعد أعرف أين أنا وما هو هذا المكان الذى أنا فيه . بل هل أنا فى مكان على الإطلاق . كان ماينصب فى روحى من الحكاية هو حكايتى وحياتى فيساورنى التعجب والتوقع أن أتبدد فى عيونها لأدخل فى تلك السياحة التى لا تنتهى نحو لقاء مستحيل .

وخطر لى وأنا راقد لا أقوم من نومى الطويل الذى أصابنى بعد تعاقب أسئلتى للملكة أن أقوم لأجدد الأسئلة من جديد ولأواجهها بأسئلة الحياة وليس أسئلة الكينونة التى تتبادلها مع بلوقيا أو لا تكاد تسمح لى إلا بها . كيف أستطيع أن أسألها أين أنا وقد أصبح هذا السؤال غير مرتبط على الإطلاق بمن أين أتيت ؟ وكنت أريد أن أسألها متى أستطيع الخروج والعودة إلى أهلى وهو غير ما كان مسموحاً لى أن أسأله : « إلى أين أنت ذاهب ؟ » فأنا لاأعرف مطلقاً إجابة على مثل هذا السؤال . وما أكثر أسئلة الحياة وأعقدها ولو أنها انطلقت من عقالها المفروض على لما استطعت أبداً أن أحكى حكايتى أو أن أتوصل إلى معناها . ولقد كنت أظن أن أسئلة الحياة هى الأمر الأسهل الأقرب إلا أنها فى الحقيقة — وكما أدركت فيما بعد — كلها أسئلة تزيف الحقيقة وتحجبها وتصنع للإنسان هموماً كثيرة متعددة فتجعله يحاول فلايصل إلى المعنى ويرغب أو يريد دون أن يحقق شيئاً . ماذا تفعل أمى الآن ، وماذا جرى لزوجتى .. وماذا يحدث فى بيتى هل سأستطيع أن أجلب لهما رزقاً وأن أنخرط فى صنعة ، هل سأموت بلا عقب وماذا يقول عنى كل الناس فى حارتنا التى يقع فيها بيتنا .. هل أنا صالح أم أنا مخطىء فى حق أولئك الذين يعرفوننى جميعاً .. هل هذه أسئلة مشروعة فى الحال الذى أنا فيه ؟

ولكن ماهو الحال الذى أنا فيه بالضبط وبالصدق . أنا آكل وأنام وأنتشى من عيون الملكة وعلى بدنى وروحى سلطان يبدد المكان والزمان ويجعل الحياة مطلقة متمثلة فى كينونة مفارقة

بلا زمان يتعاقب ولا مكان محدود ، ولكنها ترغمنى على سياحة كلها حب تشدنى وتستوعبنى فلا أكون إلاّها .. فكيف يقص المرء إذن الحكاية وكيف يتابعها إلا بأن يخضع صامتاً سامعاً لهذا الحال .

وعندما توصلت فى نفسى إلى هذه المعانى أحسست أن غضب الملكة أو عقابها لى قد انتهى أو توقف وأن صمتها الذى أحدثته أسئلتى قد استنفد أغراضه . وعند ذاك صحوت من قبرى الذى كادت فيه أسئلتى أن تأكلنى ، وكأنها دود كبير نهم ، ورفعت الملكة أهدابها فرأيت بلوقيا من جديد فى مركب كبير يحمله إلى بيت المقدس مع جموع كثيرة من الناس يتركهم وينفرد كعادته وصوت الملكة يصنع المستقبل الذى سأتحرك إليه مع قولها : « وكان » .. وكأنما الذى كان هو طريقى الوحيد المفتوح للإدراك بل وللحياة : « وكان فى بيت المقدس رجل تمكن من جميع العلوم ، وكان متقناً لعلم الفلك والكيمياء والروحانى وكان يقرأ التوراة والإنجيل والزبور ، وكان يقال له عفان وقد وجد فى كتاب عنده أن كل من لبس خاتم سليمان انقادت له الإنس والجن والوحوش وجميع المخلوقات ، ورأى فى بعض الكتب أنه لما توفى سيدنا سليمان وضعوه فى تابوت وعدوا به سبعة أبحر وكان الخاتم فى إصبعه ولايقدر أحد من الإنس أو الجان أن يأخذه ولا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يسافر بمركبه فى السبعة أبحر التى عدوها بتابوته . ووجد فى الكتب أيضاً أن بين الأعشاب عشبا كل من أخذ منه شيئاً وعصره وأخذ ماءه ودهن قدميه فإنه يمشى على أى بحر خلقه الله تعالى ولا تبتل قدماه ولا يقدر أحد تحصيل ذلك إلا إذا كانت معه ملكة الحيات ..»

وارتعدت فى داخلى وأنا أسمع كل ما تتلو الشياطين فى الكتب عن ملك سليمان وسمعت فى داخلى صوتاً يثبتنى على الحق ويقول فى نفسى : وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . وسألت نفسى ماذا سيجرى لى لو أننى اتبعت الشياطين وانزلقت مع بلوقيا فى هذه الفتنة التى عرضه لها لقاؤه مع ملكة الحيات ومعرفته بموضعها .

لقد ارتعدت وظللت أرتعد وأنا أجد الحب الذى وضعه بلوقيا فى قلبى يصطرع مع ذلك الحلم الأخرق بالقدرة والملك والسلطان بعد أن يتملك الإنسان هذا القدر من المعرفة الذى يجعله فريداً مخصوصاً بين مصنوعات الله . لماذا تدفعنا المعرفة دائماً إلى الخطيئة والكفر ولماذا ينزع الإنسان إلى الملك والسلطان وكأنهما حق له قد انتزع منه .

لقد استسلم بلوقيا لعفان أو صدقه وأصبحت أنا مثل عفان ينكر قلبى هم بلوقيا ولا

يصبر عليه . فقد قال عفان لبلوقيا : « اجمعنى على ملكة الحيات وأنا أجمعك على محمد صلى الله عليه وسلم لأن زمان مبعثه بعيد وإذا ظفرنا بملكة الحيات نحطها فى قفص ونجوز بها الأعشاب فى الجبال وكل عشب جزنا عليه وهى معنا ينطق ويخبر بمنفعته ..

فقال له بلوقيا : ياعفان أنا أجمعك بملكة الحيات وأريك مكانها .. »

وتجرأت دفاعاً عن نفسى وعن صدقها وتصديقها لما علمته إياه الملكة أن أسألها جارحاً :

وكيف دخلت القفص الذى صنعه عفان وشربت من القدحين اللذين أغراك بهما ، هل ينقصك اللبن والخمر وأنت تملكين كل هذا السلطان .. كيف دخلت القفص وكيف تملكتك الخمر التى أعدها عفان وماذا كان فى نفس بلوقيا وهو يسلمك .

ولأول مرة منذ لقيت الملكة أحسست أننى حر وأننى ند لها وتخايلت فى نفسى أوهام بشرية بأننى قد غلبتها فى معركة من المعرفة سوف تحرر حياتى وتطلقها من الحال الذى أنا فيه .

ولكن الملكة تبسمت بنور صاف كزرقة السماء وأمرت لى بسماط طعامها وقد زادته قدحين من لبن وخمر لآكل وأشرب وكأنما أنا جوعان عطشان وقالت لى بصوتها العسلى : ليس هناك إيمان إلا وله فتنة وليس هناك حب إلا ويمتحن بما هو غيره .. إن الهم الواحد لا يكتمل حتى يمر فى عواصف الخلق وجحيم النفس التى لايعرف قرارها أحد ... قد تكون ياحاسب ، كريم الدين مثل أبيك ولكنك لاتعرف بعد كيف تحسب خطواتك ومتى تتوقف أو تسير .. لولا عفان وشياطينه لما واصل بلوقيا سياحته ولولاى أنا لما فتنت أنت بما فتن به عفان ولما عرفت أنت هذا الجحيم الذى هو طبقات فوق طبقات فى داخل نفسك ..

ودون أن أمس شيئا آخر من الطعام مددت يدى مأخوذا بلون الخمر فى القدح وشربتها كاملة دفعة واحدة فانطلقت فى نفسى دون استعداد أو توقع كل شياطين الكفر وانفتحت فيها أبواب كأبواب جهنم السبع لكل باب منها جزء مقسوم . وتدافعت من الأبواب رغبات محرمة سيماها معروفة مقررة وقالت لى الملكة فيما هو قادم من أقوالها وحكايتى : هناك للنار سبع طبقات هى جهنم ولظى والجحيم والسعير وسقر والحطمة والهاوية . مسيرة كل منها ألف عام فأيها تختار وفى أى طريق تسير ...

ورحت أتقلب أمام نفسى وأمامها صامتا أرتكب كل جرائم البشر فى داخلى دون تردد أو حرج . ووجدتنى أكذب على نفسى وعلى البشر وأسرق من نفسى ومن كل الناس وأزنى بكل امرأة وبكل جسد وأتكبر وامتلىء غرورا على كل مخلوق وأقتل النفس التى حرم الله وأعذب من يحبونى وأحبهم واستريب فيهم جميعا وأراهم أقل منى قدرا وقيمة وكأنما أنا

إبليس نفسه . لقد بدأت كل جريمة بالسلطان ووراء كل إثم تلك الرغبة فى المقدرة التى لا حد لها ولا نهاية . واستطالت جرائمى وكأنها امتدت تملأ المسيرة الطويلة إلى النار بطبقاتها السبع . ألف عام فى كل جريمة لا تكفى لاكتشاف مصدرها ومنبعها الأول . وألف عام لكل جريمة لا تكفى للتوبة ... وألف عام أخرى تقود إلى ألف عام وألف بعدها وسابعة تطبع على البدن والنفس سمات لا تزول ..

فى هذه الأعوام الممتدة بلا نهاية عرفت الطمع والرغبة فى خاتم سليمان وتصورت كل هذه القدرة التى تقبض الريح وتبسطها وتجلب الوحوش والطيور وحيوان البحر وتحرك الجبال وتجفف الأبحر والأنهار وتستبيح الأجساد للنساء والولدان وتقضى على الرضع والأيتام وتقضى على المدن والبيوت والقوافل والدواب على الطرقات والمراكب فى لجج البحور والأنهار ... وضممت إلى صدرى ذهب الأرض وجواهرها البراقة الهشة والصلدة بكل الألوان والأحجام وجمعت الثمار وكل طعوم الفواكه والمشروبات وأنواع اللحم من كل صنف ولون .. كل هذا جرائم ، كل هذه أفعال .. من أين يأتى الإنسان بكل هذا الشر الذى يصدر مزدحما متدافعا لا ينتهى من السلطان .. كل هذا من السلطان ... إن النار لا تشبع وجريمة السلطان فى النفس لا تتوقف أو ترعوى ...

القتنى عواصف الإجرام على الأرض بعد أن كنت واقفا متحديا أمام الملكة . وأغمضت عينى حتى لا أرى فى عينيها ما ارتكبته من جرائم وما ظللت أرتكبه فى داخلى حتى بعد أن صمتت وأغلقت أهدابها .. وأدركت وأنا صامت أن عذاب كل جريمة مصاحب لها إلا جريمة السلطان فهى تخفى عذابها لتتعدد الجرائم والآثام .. ولكن ألم أدرك أن كل جريمة تبدأ بجريمة السلطان !!

حمدت الله أننى لا صفة لى ولا مال وأنى قدمت من حيث لا أحتسب أمام الملكة ، ذات المعرفة ، مجردا منبوذا لا أملك حتى الحكاية التى أعيدها وأكتبها .. وتشهدت وأنا أحمد الله وصليت على رسوله الكريم وإذا بالحيات الكريمات من حولى يقمننى جالسا ويمددن سماط الملكة من جديد حتى إذا طعمت وشبعت دون أن أمس قدح اللبن الملآن رفعت رأسى إلى وجهها الجميل وانثالت من عينها فى بدنى تلك النشوة التى لم أعرفها من قبل واستراحت الدنيا فى داخلى وكأنما أكمل خلقها أو أعيد من جديد ..

وانبعث صوت الملكة من جديد يقول لى « اعلم ... أن عفان تقدم إلى القفص وقفله على الحية ثم إن عفان وبلوقيا سارا بملكة الحيات نحو الجبال التى فيها الأعشاب ودارا

بها على جميع الأعشاب فصار كل عشب ينطق ويخبر بمنفعته بإذن الله تعالى فبينما هما فى هذا الأمر والأعشاب تنطق يمينا وشمالا وتخبر بمنافعها وإذا بعشب نطق .

وقال العشب : أنا الذى كل من أخذنى ودقنى وأخذ مائى ودهن به قدميه وجاز أى بحر خلقه الله تعالى لا تبتل قدماه .. » .

وأحسست بأقدامى ثقيلة جافة وعفان وبلوقيا يعودان بالملكة إلى موضعها ورأيتها تخرج من القفص وتقول لهما :

ــ هيهات أن تقدروا على أخذ الخاتم .

فقال عفان : لأى شيء ..

ــ لأن الله تعالى مَنَّ على سليمان بإعطائه الخاتم وخصه بذلك لأنه قال : رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فما لكما وذلك الخاتم . لو أخذتما من العشب الذى كل من أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى ، وهو بين تلك الأعشاب ، لكان أنفع لكما من هذا الذى أخذتماه ، فإنه لا يحصل لكما منه مقصود ..

وتحيرت روحى من جديد عن المقصود الذى تريده الروح وعرفت أن الوسائل مهما كانت لا تنفع لأن المقصود المخبوء فى الروح لا تعرفه الروح . فهل أنا أعرف ما أقصد إليه وما أريد أم أكتفى بأن أعلم ما تعلمنى به ملكة الحيات ..

تطاول عفان على كرسى سليمان ومد يده للخاتم الذى كان يطغى نوره على كل أنوار الجواهر فإذا بحية تخرج عليه وتنفخ فيه فيحترق ويصبح كوما من رماد أمام الكرسى لا أثر فيه ولا سمات من عفان ولا ذكرى من كتبه وما قرأ ..

أما ما كان من أمر بلوقيا فقد صانه الحب الذى فى قلبه من الحريق ووقع مغشيا عليه من هول ما رأى حتى إذا أفاق « صار يبكى بكاء شديدا وندم على ما فعل .. »

أما ما كان من أمرى فقد غسلتنى دموع بلوقيا وأزهرت روحى بجمال كجمال الملكة وكأننى سوسنة وحيدة فى الوادى أو طير من طيور الصباح وحيدا فى السماء .

الفصل السادس

لبن التوبة والتيه

□□ ذهب بلوقيا إلى حال سبيله وأردت أن أستوقف بلوقيا لأننى لم أعرف ما هو سبيله ولا ما هو هذا الحال الذى عليه هذا السبيل . لقد ندم ندما شديدا على ما فعل وتفكر فى قول ملكة الحيات هيهات أن يقدر أحد على أخذ الخاتم .

وقبل أن أمسك به مرة أخرى وقد أدركت أن حكايتى تسير فى أعقابه قالت لى الملكة : تفكر أنت فيما قلت لك .. لِمَ لَمْ تشرب قدح اللبن .

ورأيته أمامى مليئا أبيض صافيا وكأنما خشيت منه بعد قدح الخمر وبعد أن كان قدح اللبن سببا فى دخولها قفص عفان . وظللت مترددا وهى تدعونى بعينيها أن أشربه .

وقالت لى فى هدوء لقد اشتبكت حياتك بحياتى وبما أقصه عليك ولا أظنك فى حاجة الآن إلا أن تعلم معنى التوبة عما دار فى داخلك من جرائم . لقد أردت أن أعيد إليك حريتك وتركتك تنطلق وحيدا بعيدا عما اتفق من ترابط بينى وبينك ، وبينك وبين بلوقيا .. وتركتك وحيدا مع نفسك ، فهل أنت معها الآن ؟.

كان هذا سؤالا جديدا علىَّ تماما . فأنا أعرف أننى دائما مع نفسى وحيدا ولم يربطنى شىء من قبل مع أحد . ولم أعرف بماذا أجيبها . كنت وحيدا فعلا مع نفسى أريد أن أظل كالطير الوحيد فى السماء أو السوسنة المتفردة بلا مثيل لها فى الوادى كنت أود لو أننى أستطيع أن أقطع ما بينى وبين بلوقيا وما بينى وبين الملكة وأن أذهب .. إلى أين ؟

لماذا لا أسألها متى أعود إلى بيتى وأهلى ومدينتى . ولكن قبل أن أستطيع أن أجمع نفسى للسؤال كررت على أمرها : اشرب اللبن الآن .

وجرعته مسرعا مستسلما فإذا بى أنفجر فى بكاء شديد عنيف يهز جسمى كله ويعصف بروحى وكأنه بكاء بلوقيا أمام كومة الرماد . ولم أدر بوضوح لِمَ أبكى وما معنى هذا الندم الذى أحسه بداخلى . ولقد أعدت التصور والتذكر لكل الجرائم التى عرفها البشر وارتكبها الأفراد أو الجماعات ولكن دموعى كانت تهزنى باستمرار وبعنف لتذكرنى بأمى وزوجتى وبيتى وحارة بيتنا وكأن كل جرائمى هى هذا الفراق المفروض علىَّ وهذه الغربة التى لا أعرف لها ثمنا ولا سببا . كنت أتصورهما واقفتين على باب بيتنا تنتظرانى وقد لبستا أشبه ما يكون بالحداد الأسود وكأننى مت ولا أمل فى عودتى ، ولكننى كنت أرى دموعهما فى عينيهما وأرى زوجتى وأمى تدخلان وتخرجان من باب البيت وتتحركان باكيتين فى أمور المنزل التى لا تنتهى .. فهل عدت إلى أسئلة الحياة وهل انقضت بذلك حكايتى .. وماذا ارتكبت حتى أشعر بكل هذا الندم وتهزنى كل هذه الدموع . وماذا كان فى هذا اللبن .

لم أتطاول على خاتم سليمان و لم أطمع فيه ولا أظننى سأطمع فيه أبدا ، فلم انفتحت على كل هذه الأبواب من النار وماذا علىّ أن أفعل الآن . وأدركت لأول مرة أننى منذ التقيت الملكة لم أفعل شيئا إلا أن أعلم ما تعلمنى وتعجبت كيف تنحصر حياتى فى هذا المجرى الذى لا أعرف كيف يسيل ومتى يجف هذا الماء الذى يسيل فيه .

ورفعت عينى إليها متضرعا أبحث عن الطريق وقد أحسست أننى تائه تماما لا أعرف أين أنا ولا من أين أتيت ولا أين أنا ذاهب . ومع شعورى بالتيه رأيت بلوقيا يدهن قدميه من الماء الذى كان أخذه من العشب « ونزل البحر وصار ماشيا فيه أياما وليالى وهو يتعجب من أهوال البحر وعجائبه ومازال سائراً على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرة كأنها الجنة وصار يتعجب من حسنها .. وعلم أنه قد تاه عن الطريق الذى قد أتى منها أول مرة حين كان معه عفان .. » .

وكدت أصيح فى بلوقيا أسأله أين الحب الذى كان يقودك فى الطريق ويحركك سائحا فى حب محمد ﷺ . هل أضعت الحب كما أضعت الطريق وإلى أين أنت ذاهب الآن . إلى أين ؟ هل تذكر أنت أيضا أهلك وبلدك وهل تستطيع أن تعود .

و لم تحدثنى الملكة و لم ترفع عيونها فىَّ وكأنما تتركنى أعلم منطق الحكاية من صمتها . فقد كان على بلوقيا أن يعاود من جديد عبور البحور السبع وأن يدهن قدميه من بحر إلى بحر بلا دليل يهديه ولا أمل يجمعه على الحب الذى قام فى نفسه .

لقد امتدت أمامه وأمامى البحور السبع بلا هدف إلا أن نعلم اتساع الكون على من يضل الطريق . فهل فى حكايتى البحور السبع . كان كل بحر فريدا بذاته وحكاية بمفرده . ويظل يمشى ليالى وأياما فى كل بحر حتى إذا وصل جزيرة وانفرد فيها بنفسه خرج عليه من البحر والجزيرة ما يخيفه ويفزعه ويدفعه دفعا إلى أن يدهن قدميه وينزل البحر وكأنما الذى أصبح يحركه هو الفزع والخوف وكل ما يجمعه هو طعام يلتقطه من على الشجر أو من البحر بلا أمل فى لقاء أو حب .

أين أنت يا بلوقيا الآن وماذا تفعل بنا كل هذه المعرفة التى نلتقطها ونحن تائهان . إن كل ما تعلم لا يردك إلى الطريق وكل ما علمت لا يدفع عنك غائلة الجوع والخوف .

وعندما « نزل البحر السابع وسار و لم يزل سائرا مدة قاسى فيها جوعا عظيما حتى صار يخطف السمك من البحر ويأكله نيئا و لم يزل سائراً على هذه الحالة حتى انتهى إلى جزيرة أشجارها كثيرة وأنهارها غزيرة .. حتى أقبل على شجرة تفاح فمد يده ليأكل من تلك

الشجرة وإذا بشخص صاح عليه من تلك الشجرة وقال له إن تقربت إلى هذه الشجرة وأكلت منها شيئا قسمتك نصفين ..

ــ لأى شيء تمنعنى من الأكل من هذه الشجرة .

ــ لأنك ابن آدم وأبوك آدم نسى عهد الله فعصاه وأكل من الشجرة .. »

وتحددت صفة بلوقيا الجديدة التى يجيب بها على أسئلة الكينونة التى تحاصره :

«أنا من بنى آدم وجئت هائما فى حب محمد ﷺ ولكنى تهت عن الطريق .. »

فغمغمت لنفسى خجلان من كينونتى : وهل هناك من بنى آدم من ليس تائها فى الطريق . لقد تحققت من هذا الآن وأصبحت حكايتى شيئا لا أعرف كيف أعيده أو أحكيه فكيف يحكى المرء التيه والشعور الأصيل به عندما يصبح كل حياته وكل ما لها من معنى . قد يجمع المرء وهو تائه المعرفة ولكن ما قيمة المعرفة إذا اختفى المقصود وغاب الطريق . سمك جاف ميت أو سمك نيىء تنتزعه من البحر وشعور متعمق غائر بالمعصية وبلهفة التوبة التى هى مجرد ندم لأنها لم تعرف نعمة الغفران ..

لقد جاعت روحى لأن أعرف كيف خلق الله الأرض والنار والملائكة والجان وكيف يعيشون جميعا ويحيون وماذا يجيبون لو سألناهم من أنتم ومن أين أتيتم وإلى أين ذاهبون . لقد وُضِعت لهم جميعهم حكاية وهم يعيشونها فى ديمومة متصلة هى كل حياتهم لأنهم قد انقسموا بوضوح وتحديد إلى كفار ومؤمنين وأصبحت حياتهم وكينونتهم دفاعا عن هذا الإيمان أو عذابا وتعذيبا لغيابه . ولكن هذه الثنائية الفارقة لا ينعم بها بنو آدم . فابن آدم قادر على الإيمان وعلى الكفر ، قادر على الحب وعلى الانشغال عنه بجرائم السلطان وقادر على أن يتذلل للمعرفة دون أن يعرف كيف ينتفع بما عرف ..

فهل هذا هو كل حكايتى وكل ما حصلت من معرفة .

يا مليكتى العارفة : أين بلوقيا الآن ؟

ــ تائه فى الطريق ..

ــ ومن الذى يلقى فى الطريق ؟.

ــ ملوك الجان وملوك الطير والوحوش وأصحاب الأراضى الشاسعة والجبال الشماء التى تحيط بالأرض .

ــ وماذا يقول لهم ؟

ــ « أريد منك أن تأمر واحدا من أعوانك يوصلنى إلى بلادى .. »

ـــ فماذا يقول له الملك الذى يسأله هذا .

ـــ « ما نقدر أن نفعل شيئا من ذلك إلا إذا أمرنا الله تعالى ولكن إن شئت الذهاب من عندنا فإنى أحضر لك فرسا من خيلى وأركبك على ظهرها وآمرها أن تسير بك إلى آخر حكمى ... » .

ـــ فماذا يفعل بلوقيا ..

ـــ ينتقل من حكم إلى حكم ومن معرفة إلى معرفة دون أن يهتدى إلى الطريق ..

ـــ فماذا ينتظر ..

ـــ حكم الله المكتوب ...

ـــ فما هو المكتوب .

ـــ ألا تعلم المكتوب ؟!

ـــ « أريد من فضلك وإحسانك أن تأمرى أحدا من أعوانك أن يخرجنى إلى وجه الأرض حتى أروح إلى أهلى ..

ـــ « يا حاسب كريم الدين ، اعلم أنك متى خرجت إلى وجه الأرض تروح إلى أهلك ثم تدخل الحمام وتغتسل ولما تفرغ من غسلك أموت أنا لأن ذلك يكون سببا لموتى ..

ـــ أحلف لك ما أدخل الحمام طول عمرى وإذا وجب علىّ الغسل أغتسل فى بيتى »

ـــ لو حلفت لى مائة يمين ما أصدقك أبدا واعلم أنك ابن آدم ما لك عهد ، فإن أباك آدم قد عاهد الله ونقض عهده وكان الله تعالى خمّر طينته أربعين صباحا وأسجد له الملائكة ونسى العهد ونسيه وخالفه .. » .

وهزتنى الدموع من جديد لما علمت و لم أعلم واختلط على المكتوب فلم أعرف كيف أقرأه أو أكتبه . كيف أكون سببا فى موتها وأنا حى . وهل أنا الآن حى أم الحى هم كل بنى آدم الآخرين وفيهم بلوقيا التائه فى الطريق . وكيف أتوب عن معصية لم أرتكبها بعد . وكيف أرتكبها و لم يصدر لى أمر محدد . ما أسهل ألا أدخل الحمام ولا أغتسل إذا كان هذا هو كل المطلوب منى . و لم يكون المكتوب أن يكون هذا أمراً صعباً وأن على أن أعصيه .. هل هناك أمر صعب أم أن العصيان هو المكتوب والتوبة مكتوبة والغفران وحده هو الممنوح بلا كتاب . وتحيرت من أسئلتى أكثر مما يتحير بلوقيا مما يرى فى البحار والجزر وعلى الجبال وأرض الجان والملائكة . لقد أصبحت الأسئلة وكأنها مخلوقات عصية لا أستطيع تحويلها أو صرفها عن وجهتها التى تسير فيها وليس لها وجهة إلا هذا العصف المستمر بالبدن الذى يجعلنى أنتفض بدموع لا تنتهى ..

هل يستعد الكون للنهاية . إن نذر النهاية كانت دائما قائمة فى سياحة بلوقيا وفى كل ما علمت من الملكة ولكن الكون لا ينتهى وكل نذر هى بداية جديدة للتيه الذى لا ينتهى ..

وظلت الملكة مغمضة عيونها تحكى لى بلا رؤية كيف التقى بلوقيا بالملائكة الأربعة جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل سائرين على وجه البحر وسيرهم مثل البرق الخاطف . فلما تعرض لهم بلوقيا باسم الله أخبروه عن نذر النهاية التى ظهرت فى الشرق فى صورة ثعبان عظيم خرب ألف مدينة وأكل أهلها وأن الله أمرهم أن يمسكوه وأن يرموه فى جهنم ..

وتعجب بلوقيا مثلى من كل النهايات وسأل نفسه متى يرى النهايات الصادقة فى الحقيقة .

« وسار على عادته ليلا ونهارا حتى وصل إلى جزيرة فطلع عليها وتمشى فيها ساعة ... »

ورفعت الملكة أهدابها الثقيلة ونظرت لى بحنان غامر زاد من بكائى ودموعى ورحت أزيح الدموع من على عينى لأرى « شابا مليحا والنور يلوح من وجهه فلما قرب منه بلوقيا رآه جالسا بين قبرين مبنيين وهو ينوح ويبكى .

ـــ ما شأنك وما اسمك وما هذان القبران المبنيان اللذان أنت جالس بينهما وما هذا الذى أنت فيه .. »

وبكى الشاب بكاء شديدا حتى صرت أبكى أشد منه وسمعته يجيب بلوقيا من خلال دموعه :

ـــ « اعلم يا أخى أن حكايتى عجيبة وقصتى غريبة وأحب تجلس عندى حتى تحكى لى ما رأيت فى عمرك وما سبب مجيئك إلى هذا المكان وما اسمك وإلى أين أنت رائح وأحكى لك أنا الآخر بحكايتى .. »

ولم يكن هناك ما يدعونى لأن أسمع حكاية بلوقيا من جديد فقد عرفته وصحبته زمانا طويلا وعرفت ما هو فيه من تيه . ولكننى مع ذلك سمعته وهو يخبره بجميع ما جرى له فى سياحته من الأول إلى الآخر وسمعته وهو يقول : والله هذه حكايتى والله أعلم وما أدرى ما الذى يجرى علىّ بعد ذلك ..

وبدأ بلوقيا يبكى هو الآخر ورحنا نحن الثلاثة فى بكاء عظيم وكل منا لا يعرف ماذا يجرى له بعد ذلك . وأحسست أنا أن حكايتى قد خرجت من يدى وأننى لا أكاد أملك لها نهاية أو بداية وأن على أن أنتظر باكيا منوحا مثل الشاب بين القبرين حتى تعود للملكة رغبتها فى أن أبقى عندها طوعا لما أمرتنى به فى أول الحكاية وكأنها كل ما لدى من نهاية .

وأمرت الملكة لى بالسماط من جديد وعليه القدحان اللذان أعرفهما من لبن وخمر .

ووجدتنى أتقدم مسرعا لأجرع قدح اللبن من جديد مجانبا الخمر متوسلا لنفسى ألا تشتهيه . ووجدت نفسى أسلك مرة أخرى طريق التوبة والتيه الذى لا ينتهى وأغالب نوما ثقيلا يسقط على وأنا أسمع « أنا الآخر » يقول لبلوقيا وكأن كلماته تأتينى فى حلم عميق ..

ــ أنا رأيت السيد سليمان ورأيت بلاد كابل .. وأكلت من العشب الذى كل من أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى ..

ورحت فى سبات عميق وآخر ما سمعت صوت الملكة العسلى يقول لى : اعلم يا حاسب ... اعلم ... اعلم .. ولكننى كنت قد نمت وكأننى أشهد نذر النهاية .

الفصل السابع

أنا الآخر . .

فى نور الحب والموت

□ □ هل نمت وصحوت ، أم هل نمت وحلمت وظللت أحلم أم أنا ــ كما هو الأمر الآن فى الحقيقة ــ فى منعطف من منعطفات حياتى أحاول إعادة الكتابة والحكاية . لقد نظرت كما يجب علىّ فيما كتبت حتى الآن من إعادة كى أستطيع أن أواصل الحكاية ، ولكننى لم أستطع أن أكمل ما قرأت وخفت أننى سأنشغل به عن البدء الجديد الذى يتجمع الآن فى روحى وفى بدنى . ولكننى وجدت فى مطالع ما كتبت ــ واكتفيت بهذا ــ أننى قلت لنفسى فى بداية هذه التجربة إن إعادة الحكاية « تجعلنا نمسك بهذا المعنى من الجدة والتدفق غير المنظور فى المعانى بل والأحداث » .

وقد توقفت كثيرا عند هذا التعبير الذى دفعنى فى أول الأمر على إعادة الحكاية وهاأنا أتساءل الآن هل القادم من حكايتى الآن فيه جدة وتدفق غير منظور فى المعانى والأحداث ، أم أنه كان مخفيا كما يختفى الحلم فى نفوسنا ليخرج عندما يحين الوقت أو يصح الاتفاق . وهل تصنع الأحلام من الماضى أم أنها فى الحقيقة هى مادة المستقبل وفواتح طرقه .

عندما يحدث للمرء أى حادث فى حياته يجد أن الحادث كان فيها لأنه حدث ، وأن اتفاقه أو عدم توقعه بل والإحساس بغموض معناه هى كلها أمور خارجة عما حدث وأنها لا تدخل الحياة حقا حتى نعيد كتابتها وحكايتها .. وعند ذاك يصبح اللغز القائم هو البحث عن المعنى وإدراج الحدث الحديث فيما تراكم من معنى .. إذا كان من الممكن للمعنى ، مثل المعارف والحقائق ، أن يتراكم !

فهل ملأت بهذه الكلمات ما بين الأحداث فى الحياة من فجوة . إن لإعادة الكتابة سحراً كسحر الأقسام والعزائم التى يستخدمها الساحر والعالم لتحريك الأحداث أو قوى الطبيعة . وكل ما يفعله فى الحقيقة أنه ينظر ويتوقع ما سيحدث وأنه يعطيه بإرادته أو جريمته معنى ويتصور لذلك أنه محدثه .

فماذا أنتفع بالأقسام والعزائم ، ولم لا أخضع للسمع والرؤية وأحاول أن أمسك بهما فقط ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وهل سبيلى إلى ذلك إلا إعادة الكتابة .. أى دور أعيش فيه وأنا أبحث عن المعنى وقد أصبح المعنى كينونة مفارقة ، علىّ فقط أن أسمعها وأراها وأن أخضع لسلطان « اعلم » التى تفرضها الملكة علىّ كما يفرض الوجود على الوجود ..

كان الوقت غروبا وكأن هناك شمساً غاربة لا ينتهى غروبها على هذا المكان الذى أتحرك إليه . وكلما يحدث حادث فى الحياة فكأنما أنت تسير إليه فى طريق ، والحادث فى نهاية

الطريق منعطف أو طريق جديد .

لقد وصلت إليهما ، بلوقيا وجانشاه الشاب ذى الوجه المنير الجالس بين القبرين وأنا أحس أن حياتى ستأخذ صفة جديدة وأننى سألقى عن نفسى صفات سابقة دون أن أستطيع أن أفصل بين ما كنت وما سأكون ودون أن أعرف بوضوح هل انتهى ما كنته أو كيف سأصبح هذا الآخر الذى أنا مقدم عليه ..

وجدتهما يبكيان ودموعهما السائلة تستحيل فى داخلى إلى معان وأحداث تكسونى شيئا فشيئا صفتى الجديدة ، فتجعلنى أحس أن سياحة بلوقيا فى حب محمد ﷺ قد أصبحت صفة مستحيلة أبعادها البكاء والندم وانتظار الموت ، وأن روحى التى تثقفها الكينونة ترتدى شيئا فشيئا صفة الحب الذى عاشه جانشاه ليصبح هو الآخر صفة أبعادها البكاء والندم وانتظار الموت الذى لا يجىء ..

لقد عاش جانشاه زمان السيد سليمان ومازال هو شابا منير الوجه ، وسليمان قد مات من زمان سحيق . ولم يولد جانشاه فى مصر ولا هو من بيت المقدس ، وليس من بنى إسرائيل مثل بلوقيا ، ولكن من المشرق البعيد ، من كابل على غير مبعدة كبيرة من الهند . وكان أبوه « يحكم على سبع سلاطين وله المال من الشرق إلى الغرب وكان عادلا فى حكمه وقد أعطاه الله تعالى ومنَّ عليه بذلك الملك العظيم ولم يكن له ولد . وكان مراده فى عمره أن يرزقه الله ولدا ذكرا ليخلفه فى ملكه بعد موته .. »

وهكذا فنحن الثلاثة من أبناء الحكايات نأتى للأب فى نهاية العمر لنحمل مصائر جديدة لا يعرفها الأب ولا يمكن له أن يعرفها ولو جمع كل « العلماء والمنجمين وأرباب المعرفة والتقويم .. » ولكن أليس هذا هو حال كل أب مع كل ابن يأتى فى الحكايات أو خارجها فى أول العمر أو أواخره .. ولكننا نحن أبناء الحكايات يتلبس حيواتنا المعنى فيعطيها الصفة وندرك فى نهاية المطاف أن كل صفة مشابهة مستمدة من الأخرى وأنها تنسكب الواحدة فى الأخرى وكأنها صفة واحدة تسعى لمعنى واحد .. أننا نحن أبناء الحكايات يرزقنا الله هم الكينونة فلا نفعل بحياتنا إلا أن نعيدها ونحكيها للناس ولكل من يسمع أو يرى . فلسنا أبطالا كأبطال التاريخ بل نحن أولاد الكينونة وكل ما لنا من معنى هو تقريرها بكل ما لها من صور وأحوال وأحداث ومعانٍ ..

كانت أم جانشاه امرأة غريبة من خراسان فرضها المنجمون على أبيه فأرسل فى طلبها من

أبيها لتكون عروسا له فلن يأتيه ولد إلا منها « ثم إن الملك طيغموس دخل على بنت الملك بهروان وأزال بكارتها فما مضت عليها أيام قلائل حتى علقت منه ولما تمت أشهرها وضعت ولدا ذكرا مثل البدر فى ليلة تمامه .. »

فهل هكذا بدأت حياتك يا جانشاه وهل فى هذا ما ينبىء عما سيجرى عليك وعلىّ عندما ألقاك ، ولِمَ كان من المكتوب علىّ أن ألقاك فى هذا المساء وقد اجتمعت ببلوقيا ورفضت الملكة طلبى أن أعود إلى أهلى ..

لو أننى عدت إلى بيتى لكانت حكايتى قد انتهت قبل أن تكتمل ولما علمت هذا الوجه الآخر للحب الذى هو الآن كل حياتى منذ لقيتك والذى مازلت لا أعلم كيف سيرفع عنى فيما سيجرى علىّ ..

ما أغمض هذه المناجاة التى أناجيك بها يا جانشاه ولكنها طريقى الوحيد الصادق أن أكونك وأن تكون أنت أنا الآخر الذى علىّ أن أعرفه وأن أعيش فيه الحب الذى لا ينتهى والموت الذى لا يجىء .. إن هذه المناجاة أقسام وعزائم لا تتم الكتابة إلا بها وتستحيل بدونها إعادة الكتابة .

لهذا أنا أبكى يا جانشاه قبل أن أكمل حكايتى أو حكايتك ودموعنا نحن الثلاثة هى المنعطف الذى ننتظر عنده الدعوة الجديدة للكينونة لنذهب فيها إلى غاية مصائرنا وراء ما يتشكل لحياتنا من معنى ..

نظرت إلىّ الملكة بعيونها الواسعة وأهدابها الطويلة وقالت لى بصوتها العسلى : أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو ..

ـــ أنا لا أعلم يا مليكتى إذا كنت صاحيا أم نائما ..

ـــ ماذا تعلم إذن .. ؟

ـــ أعلم أن على بلوقيا أن يعود إلى أهله .

ـــ « لا نقدر أن نفعل شيئا من ذلك إلا إذا أمرنا الله تعالى .. »

ـــ فمتى يأمرنا ؟

ـــ الله أعلم .

ـــ ولكن حكايته قد انتهت !

ـــ ولكن حكايتك لم تكتمل .

ـــ فهل تعلمين متى أعود أنا إلى أهلى ؟

ـــ أتمنى من الله ألا أعلم .
ـــ لماذا ؟
ـــ لأننى لو علمت لنفدت الإرادة ، فإذا نفدت تكون سببا فى موتى أنا ..
ـــ أنا لن أدخل الحمام .
ـــ أنا أعلم أنك لا تريد ولكن إرادتك ظن لا علم فيه .
ـــ فهل أنا أعلم أى شيء ؟
ـــ اسأل نفسك ؟
ـــ أنا لا أعلم ماذا أعلم .
ـــ لأن حكايتك لم تكتمل .
ـــ فهل ستكتمل ؟
ـــ إذا أدركت المعنى .
ـــ ومتى أدركه ؟
ـــ عندما تكتمل .
ـــ ومتى تكتمل ؟
ـــ عندما تدركه .

وتبسمت الملكة كأنما تهنئنى لأننى صَمتُ فلم أعاود السؤال عندما أدركت ما فى حوارنا من دور . وبعد أن طال صمتى وصمتها قالت لى الملكة من جديد :

ـــ أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو ؟

فارتفع فى نفسى غضب ساذج وكأنها تريد أن تسخر منها وقلت لها صائحا وأنا أتقدم مقبلا إلى حيث بلوقيا وجانشاه :

ـــ أنا صاح تماما وأريد أن أعلم ما هذا النور الذى يشع من وجه جانشاه .
ـــ إنه يشع أيضا من وجهك وقد انعكس عليه .
ـــ فأى شيء هو هذا النور ؟
ـــ نور الحب والموت .
ـــ وهل للحب نور ؟
ـــ ليس هناك نور إلا نوره .
ـــ وهل للموت نور ؟

ـــ إذا كان فى انتظار الحب .

ـــ فماذا ينتظر جانشاه ؟

ـــ لقاء الموت .

ـــ أليس هذا حكم البشر أجمعين ؟

ـــ نعم ولكنهم لا يجعلونه صفة لهم .

ـــ فبماذا يتصفون ؟

ـــ بفجاءة ما يحدث لهم .

ـــ ولماذا يفاجأون ؟

ـــ لأنهم لا ينتظرون .

وأحسست أننى أفاجأ من جديد بالدور فى الحوار فصمت وصمتت هى الأخرى مدة طويلة حتى سألتنى من جديد :

ـــ أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو ؟

فقلت لها راضخا مستسلما :

ـــ وكيف أصحو يا مليكتى ؟

ـــ تنتظر ما يجرى عليك فلا تفاجأ به .

ـــ وكيف أنتظر ؟

قالت لى الملكة وهى تنظر إلىَّ بحنان شديد :

ـــ هذا أصعب ما يجرى على البشر ..

وقمت صارخا أبكى وأنوح صائحا فى جانشاه :

ماذا تنتظر يا جانشاه .. ماذا تنتظر ؟

ورفع جانشاه عيونه الباكية فىَّ ورأيتهما مثل عيون الملكة وسمعته يبدأ ليحكى لى حكايته فصحوت تماما لأعيدها .

الفصل الثامن

غزالة الصدق وحساب المكتوب

□ □ وضعت لنفسى معيارا من الصدق يكاد أن يعجزنى عن إعادة الكتابة لما جرى علىّ . فأنا أقول مثلا « ما جرى علىّ » وليس ما جرى لى أو جرى أمامى أو بلغنى أو شيئا آخر من هذا القبيل . ولقد وجدت أن معظم من يكتبون يتجنبون ما يجرى عليهم ثم يزعمون أنهم يتقصون كل جهات الحدث الأخرى .

فحكايتى ــ كما تعلمون وكما قررت سابقا ــ مكتوبة قبل أن أعيدها ، ولا شك أنها ستعاد من جديد أكثر من مرة حتى يأتى أمر الله الأخير . ولكننى عندما حكمت معيارى للصدق وجدت أن ما جرى علىّ فى تلك البقعة المنيرة بهذا النور الغريب الذى يشع من وجه جانشاه له أكثر من مرتبة من مراتب الوجود . فقد كنت أراه يحدث متحققا فى عيون الملكة وكنت أسمعه مغلفا بالدموع والحنين فى صوت جانشاه وأحسه ظلالا سوداء ثقيلة على بلوقيا الجالس المتلفع بزربونه فى صمت وأخيرا ــ إن لم يكن أولا ــ كنت أحسه يسرى فى بدنى وروحى كأنه أيام حياتى التى تمر دون أن أعدها أو أعى بها ولكنها تصنع رغما عنى هذه الحياة والحكاية . فكيف أعيد كل هذا دفعة واحدة دون أن أغمط أى جزء منه حقه الكامل فى الوجود ودون أن تنحرف الحكاية فى الإعادة أو يعتورها النقص أو الزيف والاصطناع .

كان جانشاه يتكلم العربية ولكنها عربية غريبة آسرة فيها لكنة حلوة من آثار لغة أخرى وكأنه تعلم العربية على كبر ، أو كأنه ، من تملكه للعربية ، يوجهها كما أراد نحو أصوات وتراكيب لا تعرفها . ولكنها مع ذلك مبينة نافذة كأنها عطر أو أضواء كواكب :

ــ عندما كبرت إلى الخامسة كنت قادرا على أن أقرأ وكان أبى قد جعلنى أقرأ وأعلم كل ما فى الكتب المقدسة فى شرق المملكة وغربها . قرأت التوراة والإنجيل وكتب الهند وصرت عارفا بحقائق ومبادىء عن الروح والوجود لا يعرفها الشيوخ والحكماء . وفى الخامسة عشرة تعلمت الركوب والطعن والضرب وجميع آلات الحرب وبدأت أعشق العربية وشعرها وأذوق اليونانية وما فيها من حكمة وحوار .

وتلفتت روحى وعيونى إلى مليكتى العارفة وكأننى طفل حسود أقول لها فى سرى أريد أن أعلم ما يعلم جانشاه فقالت لى « اعلم » ولم تكمل ...

ــ وخرجت مع أبى فى رحلة للصيد والقنص تحيطنى كوكبتى الخاصة من المماليك السبع وسرنا فى البرارى القفار واشتغلنا بالصيد والقنص إلى عصر اليوم الثالث ..

وتوقف جانشاه عاجزا عن أن يمسك بالوقت وما يحدث فيه وغامت عيناه بنور كنور الغروب المقترب وتحير لا ينطق وكأنه نسى اللغة والكلمات . فرفعت عينى إليه وملت بهما إلى عينى الملكة فإذا بى أرى جانشاه الفارس وقد « سنحت له غزالة عجيبة اللون وشردت قدامه . فلما نظر جانشاه إلى تلك الغزالة وهى قدامه ، تبعها وأسرع فى الجرى وراءها وهى هاربة . ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى بحر فتهاجم الجميع على الغزالة ليمسكوها قنصا ففرت منهم الغزالة وألقت نفسها فى البحر . وكان فى ذلك البحر مركب صياد فنطت فيها الغزالة فنزل جانشاه ومماليكه عن خيلهم إلى المركب وقنصوا الغزالة وأرادوا أن يرجعوا إلى البر فهبت عليهم ريح وأجرت المركب فى وسط البحر وناموا إلى وقت الصباح ثم انتبهوا وهم لا يعرفون الطريق ولم يزالوا سائرين فى البحر ... »

ولا يمكن لى مهما أوتيت من لغة ومهما حاولت من صدق أن أصف أو أمسك بلون الغزالة وحركتها وهى تشد جانشاه وراءها أو كأنما تشده وتدعوه فى دلال كدلال المرأة الجميلة أو كحركة الفكرة السانحة وهى تريد أن تقودنا إلى المعنى . وعندما تهاجموا عليها ، جانشاه ومماليكه الستة ، فقد ترك واحدا منهم عند الخيل ، كانت كأنما تريدهم أن يمسكوا بها فى المركب أو أن تجمعهم جميعا فى هذا المَركَب الخطر المحصور فى البحر والريح . كانت الغزالة كأنها دعوة حلوة حاسمة وكأنها تقودنى من جديد إلى كوات على الوجود والكينونة عرفتها وخبرت وطأتها على الروح منذ لقائى مع الملكة . لقد قُضى الآن على جانشاه كما قضى علىّ وعلى بلوقيا من قبل وانطلقت الروح مخيرة مسيرة يندلع فيها الشوق الذى لا ينطفىء ويحملها على أن تقدم نفسها ضحية بلا شرط أو أجر معلوم .. كانت الغزالة تدعونى من جديد إلى ما هو أكثر من المعرفة ، فى هذا الطريق وراء الكينونة الذى هو سر كل الحياة وأول كل الحكايات .. لقد عرفت هذا الطريق من حكايتى وعندما نظرت إلى بلوقيا ، وقد أزاح اللثام عن عينيه ليرى ، عرفت أنه أيضا كان يعرف هذا الطريق ..

فقد دفعت عاصفة البحر بهم إلى جزيرة وكأنها من جزر بلوقيا التى تصنع سياحته وتمنعها من التوقف وإن كانت فى نفس الوقت إعداداً لما هو قادم عليه مما سيجرى على روحه من تبصر وإدراك وحكاية . كان فى الجزيرة عين وجدوا عندها مخلوقا من مخلوقات الله أشبه بالبشر يرد السلام ولكنه يلتفت بعد السلام يمينا وشمالا وينشق إلى قسمين وكأنه يدعو هذه الجموع المحتشدة من أشباهه التى التفت حولهم تنشق قسمين وتهجم عليهم فتأكل

ثلاثة من مماليك جانشاه وتدفعه لأن يتبع الغزالة وهى تهرب قائدة لهم إلى المركب من جديد .

كانت مماليك جانشاه ، وقد أصبحوا ثلاثة ، يتناقصون وكأنهم يتناقصون بحساب أو كأنهم يحسبون الخطوات أو الأزمنة على هذا الطريق . ولعلهم ليسوا إلا مماليك ككل المماليك يؤكلون ويتناقصون وأنا الذى أحسبهم لأضمن أننى أعيد الحكاية فى صدق صدوق .

ففى المركب وقد اجتمعوا ومعهم الغزالة حركهم الجوع الشديد الذى عانوه بعد أيام وليال فى البحر أن يتقدموا نحو الغزالة يريدون أن يذبحوها ويقتاتوا منها . فلما هموا بذلك وجدتنى أصرخ قائلا :

جانشاه .. انتظر .

وعندما التفت إلىّ كان المماليك الثلاثة يذبحون الغزالة ويسلخونها ويشوون لحمها على نار أشعلوها فى المركب ويقدمون لجانشاه قطعة ناضجة من لحمها . ولم أتبين إذا كان جانشاه قد أكل ما قدموه له منها أم لا ولكن الريح الشديدة أحاطت بالمركب من جديد وألقتهم إلى « جزيرة أخرى » ولم يستطع جانشاه أن ينهض للصعود إليها فأمر مماليكه الثلاثة أن يكشفوا خبر هذه الجزيرة وظل هو جالسا يفكر فى غزالته التى قتلها .

وعاد المماليك الثلاثة إلى جانشاه بعد أن طعموا وشربوا من فواكه الجزيرة يابسه ومرطبة ومن عيونها الجارية وأخبروه عن قلعة من الرخام الأبيض فيها بستان فتشوق جانشاه لرؤية ما رأوه وكأنما ليس هو المَعنىّ بكل ذلك ..

وجلس جانشاه على التخت المنصوب وسط الكراسى المنصوبة فى البستان وصار يتفكر ويبكى على فراق تخت والده وعلى فراق بلده وأهله وبكت حوله الثلاثة المماليك فبينما هم فى ذلك الأمر وإذا بضجة عظيمة من جانب البحر فالتفتوا .. فإذا هم قرود كالجراد المنتشر .

وبينما أحاول أن أشق طريقا لى بين هذه القرود كى أسمع ما يقول جانشاه إذا بمليكتى تقول لى بصوتها العسلى :

ــ اعلم يا حاسب أن كل هذا مما يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا ..

فثبت نظرى فى عينيها وقد اختلط على الزمان والمكان وكاد أن يضيع منى المعنى الذى ظننت أننى قد أمسكت به منذ أن رأيت الغزالة تقود جانشاه وتبعده عن بيته وأهله وملك أبيه وأمه .

لقد علمت من طبعى وأنا أعيد الحكاية أننى حقا حاسب أريد أن أحصل دائما على مجموع المعنى ويزعجنى ويحيرنى ويذكرنى بأهلى كل ما ينتثر فى الحكاية من معان لا تجمع ولا تتراكم . ويردنى ذلك إلى طبائع البشر الذين يفاجأون ولا ينتظرون فأقول للملكة :

ـــ وماذا فعل جانشاه مع القرود بعد ذلك ..

وعلى الرغم من أننى سمعت الحكاية وقرأتها وكان أمامى جانشاه نفسه أسأله إذا أردت فإننى بعد هذا كله لا أستطيع أن أجزم أننى فهمت ما حدث تماما مع القرود أو لماذا حدث . كانت القرود تعيش فى هذا المكان من أيام سليمان ويبدو أنه كان يأتى ليتنزه فى هذا البستان ويقضى أوقاتا فى هذا القصر أيام سلطانه وملكه الممتد على الحيوان والطير . فإذا كان هذا صحيحا وليس هناك ما يمنع من ذلك ، فإن القرود فى جزيرتهم الغنية يريدون سلطانا عليهم يحكمهم ويحارب معهم ما يحيط بهم من أعداء هم غيلان أحيانا ونمال ضخمة أحيانا أخرى . ويخسف القرود المركب التى جاء بها جانشاه ومماليكه ويقولون له :

ـــ « اعلم أيها الملك أنكم لما أتيتم إلى جزيرتنا علمنا بأنك تكون سلطانا علينا وخفنا أن تهربوا منا إذا أتينا عندكم وتنزلوا المركب فمن أجل ذلك خسفناها .. »

وخيل لى أننى أرى بلوقيا وكأنه يتحرك فى مكانه ويزيح عن وجهه اللثام الذى كان يضعه وبدا لى فى عينيه أنه يعلم ما لا أعلم فتوجهت أسأله والملكة تقول لى :

ـــ لقد صحوت يا حاسب .

واندفع سؤالى مع كلامها فلم أجبها وقلت له :

ـــ لماذا جاء جانشاه يابلوقيا إلى جزيرة القرود ولماذا لم يرض بما يفرضونه عليه من سلطان ؟

ـــ ولم يجبنى بلوقيا بل راح يبكى من جديد وكأنه يتذكر كل حكايته أو ما لا أعلم منها وظل يردد كلمة واحدة فقط : المكتوب .. مكتوب .. مكتوب ..

ولكن صوتها العسلى شملنى وأسمعها تقول لى وحدى :

ـــ اعلم يا حاسب أن الطريق إلى الحب تملؤه المخاطر والمزالق وأصعبها على البشر مزلق السلطان . وكل سلطان حُكم على القرود . ومن يمتلك السلطان تستحيل عليه المعرفة وينغلق فى وجهه إلى الأبد كل طريق إلى الحب . فالسلطان يا حاسب ظلمات بعضها فوق بعض فاحسب لنفسك خطوها وطريقها وتعلم كيف تنتظر ..

واختفى من أمامى جانشاه الجالس بين القبرين وبلوقيا الذى يستمع له ورأيت جانشاه وهو يجاهد فى الهرب من القرود وهم يحاصرونه بطلبهم ويدخلون فى حرب مع الغيلان جيرانهم فيشاركهم جانشاه الطعن والضرب حتى انهزم الغيلان وتأكد سلطانه على القرود وكأنه أصبح حقيقة واقعة أمامهم وإن لم يكن فى نفسه إلا الانتظار وتحين فرصة الهرب .

« ولم يزل والقرود سائرين حتى وصلوا إلى جبل عال .. فوجدوا فيه لوحا من المرمر مكتوبا فيه اعلم يا من دخل هذه الأرض أنك تصير سلطانا على القرود وما يتأتى لك رواح من عندهم إلا إن رحت من الدرب الشرقى وطوله ثلاثة أشهر وأنت سائر بين الوحوش والغيلان والمردة والعفاريت وبعد ذلك تنتهى إلى البحر المحيط بالدنيا ..

أو رحت من الدرب الغربى وطوله أربعة أشهر وفى رأسه وادى النمل فاحترس على نفسك من هذا النمل حتى تنتهى إلى جبل عال يتوقد مثل النار ، ومسيره عشرة أيام ثم تنتهى إلى نهر عظيم وهو يجرى وجريانه يخطف البصر من شدة عزمه وذلك النهر فى كل يوم سبت ييبس ويجف وبجانبه مدينة كلها يهود ولدين محمد جحود وما فيهم مسلم .. »

ولست أدرى ولم يخبرنى أحد كيف حسب جانشاه خطواته وطريقه ولكنه قاد القرود سلطانا لهم فى رحلة للقنص والصيد حتى إذا ناموا قال للمماليك أريد أن نهرب ونروح إلى وادى النمل ونسير إلى مدينة اليهود .

والتفتُ إلى بلوقيا وهو من بنى إسرائيل أتوقع عنده تفسيرا فلم أسمع إلا كلمته التى يكررها : المكتوب .. مكتوب .. مكتوب .

ولم تزدنى الملكة وضوحا إلا أننى رأيت فى عينيها جانشاه والقرود تتابعه وهو يدخل وادى النمل ورأيت معركة مفزعة مضحكة بين القرود والنمل ، والنملة قدر الكلب تأتى إلى القرد تضربه فتقسمه نصفين وصار العشرة قرود يركبون النملة الواحدة ويمسكونها ويقسمونها نصفين . فلما انهزم القرود وأصبح الصباح أقبلوا على جانشاه من جديد فقتلوا اثنين من مماليكه . وهكذا هرب جانشاه إلى النهر ملقيا نفسه فيه مع مملوكه الأخير حتى غلب التيار على هذا الأخير وأصبح جانشاه وحده تماما على الشط الذى سار منه حتى وصل إلى النهر الذى كان ينشف كل يوم سبت وبجانبه مدينة اليهود التى دخلها وحده فلم ير فيها أحدا ..

وحسبت على أصابعى مماليك جانشاه السبعة وهم يتناقصون ويختفون ليصبح جانشاه وحده تماما على هذا الطريق الذى لا يسلكه المرء إلا وحيدا مجردا من كل سلطان . فهل أحكم جانشاه الحساب أم المكتوب الذى يحكم الإنسان !!

الفصل التاسع

مقصورة الرؤية

□□ فكرت وأنا أنظر إلى جانشاه جالسا بين القبرين وبلوقيا أمامه يسمع ، كيف تمسك مليكتى العارفة بخيوط الحكاية وكيف تصنع لنا الحياة . وهل هى المسئولة فعلا عن حياتنا وحكاياتنا أم أنها مثلى تعيد الحكاية . لقد بدأت قدرتى على الإعادة والحكاية تضعف لأننى تجرأت أو تجاوزت حدودى وأصبحت الحكاية ــ بلا توقع ــ تجرى علىّ وبدأت أخاف وأرتعد مما هو قادم وكأننى سأعانى وسأعرف ما هو أكثر من قدرتى واحتمالى . لقد حصنت نفسى منذ بدأت هذه التجربة لإعادة الحكاية بأننى أعلم وأعرف وأن المعرفة التى تتجمع فى داخلى تحمينى من الخوف ومن قضاء المكتوب الذى جرى على بلوقيا ، وكنت أظنها ستحمينى أيضا مما جرى على جانشاه .. هل بكاء جانشاه المتصل هو الذى أضعفنى ، أم هما القبران اللذان يجلس بينهما أم هو هذا الانتظار الذى لا ينتهى الذي يعيشه جانشاه ويقدمه لى حادثا ممتدا لا نهاية له فيستحيل علىّ أن أحكيه أو أن أعيده . فبدايات جانشاه لا توصل إلى النهاية ولكنها قصص أقرب إلى الواقع المعروف والتاريخ المقروء تحيلها الملكة بحرصها الخفى على أن أعلم إلى حِكم ودروس تعلمنى بها ما تظننى لا أعلم من طبائع البشر والخلق . لقد كنت لا أعلم فعلا ما علمتنى الملكة ولا يصح لى أن أدعى ذلك ولكنى على نحوٍ ما كنت أعلمه بقدرتى على فهمه وعلى حكايته . أما جانشاه فأنا أكاد أن أفقد روحى معه وأخشى على نفسى من أننى إذا سمعت حكايته أو أعدتها فسوف أظل إلى جانبه أبكى وأنوح حتى النفخة الأولى كما قال ..

لقد بدأ جانشاه حكايته بطلا وصاحب صنعة . فهو ابن ملك له سلطان واسع على ممالك تمتد من الشرق والغرب وكان منذ طفولته قادرا على أن يتعلم وقد تعلم ولم تصعب عليه فنون الحرب أو فنون الكتاب كما حدث لى . ولكنه مع ذلك كان مثلى ومثل بلوقيا يسير إلى قضاء مكتوب يظل طول حياته ، حتى قبل نهاية حكايته وبدء دموعه ، لا يعرفه ولا يُبكيه .

لم يكن جانشاه مثل بلوقيا أيضا . فقد ضرب المكتوب بلوقيا من البداية ومنذ خروجه من منزله وهو يعشق النبى الكريم الذى لا يستطيع ــ بكل ما له من عشق ــ أن يلقاه .

وتوقفت من حولى الحكاية تماما وكأن مليكتى العارفة قد راحت فى سبات عميق وتركتنى بمفردى أواصل حساباتى التى لم أكن أظن نفسى قادرا عليها .

لقد سنحت لجانشاه غزالة أخذته من الصنعة والأهل ، ولكنه قتلها وأكل منها . وإذا كان قد تاه بعدها فإنه تاه فيما لا يعلم ولم ينكشف له المكتوب الذى كان سائرا إليه . فهو غيرى عندما سقطت إلى لقاء الملكة وهو غير بلوقيا عندما ابتلعته الكينونة والخلق ليدرك معنى الزمن ومعنى الغاية من الوجود .

ولم يفتن جانشاه بالسلطان فقد كان فى يده وكان مملوءا به عند أبيه . ولكنه مع ذلك أخذ الطريق الغربى مخيرا تماما وكأنه يعلم إلى أين هو ماض دون أن يكون له دافع يحركه أو حتى غزالة تستهويه ..

إن جانشاه الجالس أمامى الآن بين القبرين صاحب صفة وليس صاحب صنعة . فلابد لى فى حسابى لحكايته أن أعلم ذلك . ولكنى أرتعد مما أعرف وأخاف . فصفة جانشاه صفة إذا عرفها المرء وقع فيها ولم يخرج وأصبحت كل حياته كشفا وبيانا لهذه الصفة . وصفة جانشاه ليست معرفة كمعرفتى تحيل الأشياء إلى معانٍ وتجمعها متراكمة متوسعة فى شمولها . ولكنها صفة تتجه لموضوعها فتوجده كاملا كل الكمال ، جميلا مستحيل الجمال معطيا لا نهاية لعطائه وعند ذاك يصبح كل الكون وكل الزمن وكل ما يجرى على المرء . فإذا جاء المكتوب واختفى المحبوب ظل جانشاه بين القبرين صفة بلا موصوف لا نهاية لما تبعثه من رعدة فى الروح حتى النفخة الأولى ..

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة من الحساب امتلأت روحى رعبا ورعدة وتوقفت عاجزا عن أن أكمل الحكاية وصحت فى مليكتى النائمة ــ لما لا تصحين يا مليكتى .. إننى جائع كما لم أجع من قبل .. مرتعب مرتعد من هذا الحب القادم علىّ .. لم لا تصحين يا مليكتى وتردين لى الحكاية حتى أحتمل الصفة ..

وحركت الملكة رأسها الجميل وظلت تنظر إلى طويلا وليس فى عيونها إلّاى وكأنها راحت تفكر مثلى أو تحسب كما فعلتُ ما فى يدها من حكايات . بعد طول تأمل قالت لى فى هدوء وكأنها تكبرنى وتجلنى :

ــ هذا سرك يا ابن آدم وما خصك الله به .. قدرتك على هذه الصفة وقدرتك على احتمالها .. ولهذا جعلك الله سيد المخلوقات وصنعك على صورته .. قم وكل حتى أستطيع أن أكمل لك الحكاية ..

وأمرت لى الملكة بسماطها الشهى بلا خمر ولا لبن ، وظللت آكل ويثقلنى الطعام حتى نمت .

أحسست وأنا نائم حناناً كحنان الأم يحيطنى ويحلق فوق ويكاد يلفنى بشىء أكثر ثقلاً وحساً من النظرات . كنت قلقاً أتقلب فى نومى وأدير وجهى مرة لليمين ومرة لليسار وكأننى سأنشق ، ومع تقلبى كنت أحس عيونها تتبعنى وكأنما تنتظر أن أستقر وأن أهدأ . ولكننى كنت أفكر كثيراً وأنا نائم وكانت الأفكار تستحيل فى رأسى إلى صور وأشواق

تغلفها جميعاً رغبة واحدة مستمرة فى أن أفنى فى هذا الحنان الذى يلفنى وأن أمرغ نفسى فيه . وسمعتها وسط أفكارى وأشواق تهمس همساً خفيفاً وكأنها تكلم نفسها :

ــ ما أجملك ياحاسب وما أغرب النور الذى فى وجهك ..

ولم أسمع أحداً فى حياتى يقول لى إننى جميل ولم أكن أعرف ماذا يعنى هذا تماماً . ولكننى وجدت نفسى أرفع وجهى إليها وكأنما أريد ألا أفقد نظرتها إلىّ أو أريد أن أقدم لها هذا الوجه الذى رأته . وكانت اللحظة قصيرة خاطفة كأنها غمضة عين . فما أسرع أن انتهى صوتها الهامس وجاءنى صوتها العسلى الذى أصبح جزءاً من وعيى وإدراكى وهى تقول لى :

ــ اعلم ياحاسب أن جانشاه دخل ــ كما تعلم ــ إلى مدينة اليهود وحيدا فوجدها خالية تماما من الناس حتى إذا وجد باب بيت مفتوح ودخله فرأى أهله ساكنين لايتكلمون أبدا فقال لهم إنى رجل غريب جائع .

فقالوا له بالإشارة كل واشرب ولا تتكلم ..

واعلم ياحاسب أن اليوم كان يوم سبت فقعد عندهم وأكل وشرب ونام تلك الليلة فلما أصبح الصباح حكى لهم حكايته وهو يبكى ويتذكر بلده وأهله فأخبره الرجل اليهودى أنه لا يعرف مدينته وأن عليه أن ينتظر للسنة القابلة كى تأتى قوافل التجار الذاهبة إلى اليمن إذا كانت تلك البلاد قريبة من بلاده . ورغم أن جانشاه يعرف أن اليمن ليست بلاده ولا قريبة منها إلا أنه اختار أن ينتظر .

ولم أعرف مرة أخرى كيف يحسب جانشاه خطواته إذا كان يحسبها . وكأنما عرفت الملكة ما أفكر فيه فقالت لى :

ــ اعلم ياحاسب أن اليهود قوم مهرة فى الحساب فهم يحسبون دنياهم أدق الحساب ولكنهم يخطئون دائماً فى مجموعها ونهايتها كما أنهم لا يعرفون كيف يحسبون أخراهم . إنى لا أعرف يهودياً مات سعيداً منذ أيام سليمان وأظنك تعرف كيف أخطأوا الحساب مع عيسى مرة ومع نبينا وأمته مرة أخرى ..

وتساءلت بينى وبين نفسى إذا كانت فى عروق بعض دماء يهودية وأبى اسمه دانيال ، ولكننى لم أشأ أن أسألها لأننى بدأت أرى فى عينيها جانشاه يخرج كل يوم إلى أزقة المدينة ويتفرج فيها فسألتها :

ــ عماذا يبحث جانشاه ..

ــ ظل جانشاه يبحث عن صنعة « فاتفق أنه خرج على عادته يوما من الأيام ودار فى

شوارع المدينة يميناً وشمالاً فسمع رجلاً ينادى ويقول من يأخذ ألف دينار وجارية حسناء بديعة الحسن والجمال ويعمل لى شغلاً من وقت الصبح إلى الظهر فلم يجبه أحد .. »

أما جانشاه فقد مشى إلى المنادى وقال له :

ـــ أنا أعمل هذا الشغل ..

وهكذا تقدم جانشاه مرة أخرى مختاراً ومضى بإرادته إلى المكتوب .

يقول الناس حكماء وجهالاً إن الوقائع كثيراً ما تكون أغرب من الخيال . ولست أقصد بالخيال هذا الجانب من حكايتى الذى أعيده كما حدث تماما لأن الناس لا تعرفه فى كل يوم ولم يجر إلا علينا نحن أولاد الحكايات . فالرحلة والسياحة والتيه فى أرجاء كون الله واقع لا خيال فيه ولكنه لا يحدث إذا حدث إلا بأمر وقضاء . أما ما أتعجب منه وأعتبره أغرب من الخيال فهو اتفاق الأحداث وتوجه الارادة واختيار الواحد ، كل واحد منا ، الطريق والوقت الذى يجمعه أو يبعده عن الآخرين ، الذين يغيرون حكايته ، أو الذى يلقيه فى أو يجنبه ، الأحداث التى تصنع حكايته . فما الذى كان يمكن أن يحدث لجانشاه مثلا لو أنه اتخذ الطريق الشرقى منذ هرب من القرود أو لو أنه لم ينزل الأسواق فى هذا اليوم الذى سمع فيه المنادى أو لو أنه خشى ما يعلنه الرجل وتوجس منه فلم يجبه ولم يتقدم لأخذ الصنعة والشغل الذى يعرضه عليه التاجر اليهودى ، الذى بعث المنادى هذا اليوم وفى هذا المنعطف من الحكاية ، وكأنما ليصطاد جانشاه وليطوح به دون أن يريد أو يقصد فى الطريق الذى مضى فيه ..

اتفاق الوقائع للقاء والرؤية هو دائماً أغرب من الخيال ، ولو تفكر أى منا فى أى حادث من حوادث حياته مهما كان بسيطاً ومألوفا لرأى غرائب الاتفاق وعرف فى ذلك ما هو أغرب من أى خيال .. فما باله لو فكر فى الرؤية التى غيرت حياته وفى الطريق الذى قاد جانشاه إلى مقصورة الرؤية ..

فهل كان جانشاه يعبث أو يجد وهو يأخذ الكيس الذى فيه ألف دينار وقد رأيته يضعه فى جيبه بقدر من السرور والاغتباط بنفسه وكأنما قد أنجز شيئاً هاماً . وهل كان يلهو ، وما أكثر ما يلهو البشر بحياتهم وأبدانهم ورغباتهم ، وهو يأخذ الجارية البديعة الحسن والجمال ويتبطنها منعما ببدنها حتى الصباح ثم يقوم مسروراً بنفسه ويتركها على الحشية التى ناما عليها وهو لا يعرف حتى اسمها ليذهب إلى الحمام ويغتسل . وقد أردت أن أسألها عن اسمها استكمالا لما أحكى من حكاية ولكنها لملمت ثيابها بسرعة واختفت عن عينى فى غرفات بيت اليهودى وكأنما تنتظر ليلة أخرى أو رجلاً آخر . ويبدو أننى اشتهيت الجارية

حتى كدت أغفل عن جانشاه لولا أن سمعت صوت اليهودى يقول له أريد أن تعمل لنا الشغل ..

ورأيت الرجل يأتى ببغلتين فيركب جانشاه واحدة منهما ويركب الرجل الأخرى ويسيران خارج المدينة نحو الجبال العالية حولها حتى إذا اقتربا منها طلب منه الرجل أن يذبح البغلة التى يركبها ويسلخها ويقطع أربعتها ثم أمره أن يفتح بطنها ويدخل فيها ليخيط عليه وأن يبقى ساعة بالداخل وأن يخبره بكل ما يراه فى بطنها ..

ولقد أدركت بحسى البسيط أن هناك حيلة يدبرها اليهودى لجانشاه ، وأن جانشاه الذى لم يتردد ولم يتساءل يسلم نفسه بلا حساب لرجل أتقن الحيلة والحساب وأخفى الطمع والشح فى ذقنه الخشنة الطويلة .

ووقفت متوجساً فوق البغلة التى أصبحت كوم لحم يختفى فى داخلها جانشاه أرقب ماذا يحدث واليهودى واقف يبتسم وكأنه يسخر ممن لا يجيدون الحساب ..

كان الجو حاراً شديد الحرارة والشمس الساطعة فى منتصف النهار تلقى على الجبال الشماء الجرداء شواظاً يكاد أن يجعل صخورها الحادة تتوقد بالسخونة التى تملأ الدنيا . وأشفقت فى نفسى على جانشاه المكوم داخل البغلة لا أعرف كيف أستنقذه وهو مقدم على ما هو قادم ليجرى عليه ..

ومالبثت غير قليل إلا وأقبلت من السماء ـــ وكأنها صخور ضخمة منقضة متهاوية من الجبال ـــ طيور سمراء كبيرة تحلق حول البقعة التى كنا فيها وألقت ظلالها علينا وعلى البغلة ، فتأخر اليهودى مبتعداً خائفا على نفسه وتقدمت أكاد أبكى وأنا أرى الطيور تتهاجم على البغلة ، فيغلبها طائر كبير وينشب أظافره الكبيرة الحادة فى كوم اللحم ويحمله مصعدا فى السماء بما حمل ، والحمل يصغر ويطول فى عينى كلما ابتعد الطير فى الجو إلى قمة الجبل العالى ، أعلى الجبال الجرداء ..

اختفى جانشاه بين السحاب بكيس الدنانير الذى غنمه وبليلة الشهوة التى اغتسل منها ومضى طائراً مع الطير كما سيفعل بقية حياته . وتذكرت الماء والبحور التى خاضها بلوقيا وطبقات الأرض والجب الذى سقطت فيه ، وقلت فى نفسى إن لكل منا عنصرا يشكل حياته ويصنعها وسبحان خالق العناصر والطباع . ولما فزعت خشية أن يضيع منى جانشاه التفتت إلى مليكتى الحاكمة فى معرفتى وقالت لى :

ـــ اعلم ياحاسب أن الطير الذى خطف البغلة المذبوحة » حط بها على أعلى الجبل وأراد أن يأكلها ، فأحس جانشاه بالطائر ، فشق بطن البغلة وخرج منها ، فجفل الطائر لما رأى

جانشاه وطار إلى حال سبيله ، فقام جانشاه على قدميه وصار ينظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا إلا رجالا ميتة يابسة من الشمس .. »

فكل الرجال الذين قبلوا الشغل ، الذى قبله جانشاه ، وخدعهم كلام اليهودى ، ماتوا على أرض الجبل من الشمس والحر وتيبست جسومهم حتى عافتها الطير الجارحة ، وظلوا هكذا ملقين على الأرض المغطاة بالياقوت والجواهر الثمينة .. وانتهت حيلة اليهودى وتبدت قاسية مريرة عندما صاح على جانشاه من تحت الجبل : « ارم لى من الحجارة مائتى حجر » وكأنما لايريد أكثر من ذلك . فلما رمى له جانشاه من الحجارة ما لم يحسبه عددا قال للتاجر وقد ملأه الخوف وفزع الوحدة :

ــ « دلنى على الطريق وأنا أرمى لك مرة أخرى »

ولكن التاجر « لم الحجارة وحملها ظهر البغلة التى كان راكبها وسار و لم يرد له جوابا .. »

ياحبيبى ياجانشاه لقد صرت وحدك تماما الآن مرة أخرى بلا مال ولا شهوة ولا أهل . فهل أخطأت الحساب فيما اخترت أم أن هذه الوحدة بين الجواهر والجثث اليابسة هى الواقع والاتفاق الذى يهيىء لك طريق الرؤية ويدفع بخطاك صوب مقصورة الحبيبة .. ما أسعدك ياجانشاه بكل وحدتك وما أحراك أن تشكر الله على كل ما لاقيت من عناء ..

نظرت فى عينى الملكة فرأيت جانشاه يستغيث ويبكى ثم يقوم ليمشى فى عرض الجبل أياما متواصلة يأكل من أعشاب الأرض حتى وصل إلى طرف الجبل فرأى واديا عن بعد فيه أشجار وأثمار وأطيار فاتخذ وجهته نحوه حتى وصل إلى شرم فى الجبل ينزل فيه السيل فنزل منه إلى الوادى الذى رآه وظل ماشيا فى الوادى حتى وصل إلى قصر عالٍ شاهق يقف على بابه شيخ مليح الهيئة يلمع النور فى وجهه وبيده عكاز من الياقوت .

ــ « اعلم ياولدى أن هذا الوادى وما فيه وذلك القصر وما حواه للسيد سليمان بن داوود عليهما السلام وأنا اسمى الشيخ نصر ملك الطيور وأنا حاكم على جميع الطير الذى فى الدنيا وكل سنة يأتى الطير إلى القصر وينظره ويروح وهذا سبب قعودى فى هذا المكان .. »

ــ ياوالدى كيف تكون حيلتى حتى أروح إلى بلادى .

ــ ياولدى إنك بالقرب من جبل قاف وليس رواح من هذا المكان إلا إذا أتت الطيور وأوصى عليك واحدا فيوصلك إلى بلادك فاقعد عندى ..

كلنا ياجانشاه نقعد وننتظر لنعرف الحيلة التى تردنا إلى أهلنا ولكننا لا نعرف ماذا يحدث لنا ونحن ننتظر ..

فلما قرب موعد مجىء الطيور وقام الشيخ نصر على قدميه ليلقاها . وخشى أن ينشغل

بها التفت إلى جانشاه الذى أرهقت الوحدة والغربة حسه وجعلته قلقا لا يهدأ ومشتاقا إلى ما لا يعرف ، وقال له :

ــ « ياجانشاه خذ هذه المفاتيح ، وافتح المقاصير التى فى القصر وتفرج على ما فيها إلا المقصورة الفلانية فاحذر أن تفتحها ومتى خالفتنى ودخلتها لا يحصل لك خير أبدا . »

مفاتيحك فى يدك ياجانشاه ، والمقصورة الفلانية هى مقصورة الرؤية لا اسم لها ولا تمييز إلا أنها هى . وأنت كما أنت دائما ، وككل البشر تختار وتحسب ، وقد لا تقصد الشر والعصيان ، ولكنك إذا جئت إلى المقصورة وأنت تسير إليها طائعا مجذوبا ، كان لابد لك أن تفتحها وأن تدخلها ، وأن تصبح وأنت داخلها ملكا لما سيحدث لك وقد خرج الأمر من يدك عندما دخلت ..

مقصورة الرؤية ياجانشاه تتطلع إليها كل روح دون أن تعرف الطريق وتتحرق لدخولها كل عين ، وإن ارتكبت العصيان ، ولكن الحق المكنون لا ينكشف إلا لمن هو مثلك قادر وهو يعصى ، أن يسلم الروح للصفة التى تنكشف له . فمن الذى يستطيع ياجانشاه أن يمنع عنك مقصورة الرؤية . ومن الذى يستطيع ياجانشاه أن يقول لك قف ولا تدخل وكلنا نتشوق لدخولها حتى وإن لم يحصل لنا خير والخير كل الخير بداخلها ..

يا حبيبى ياجانشاه ما أجملك وأنت مقبل على الحب قادر عليه .

كان على باب المقصورة قفل من ذهب وفى داخل المقصورة بحيرة عظيمة حصاها من الفصوص النفيسة وبجانب البحيرة قصر صغير من الذهب والفضة وشبابيكه من الياقوت وداخل القصر فسقية من الذهب ملآنة بالماء وحولها وحوش وطيور مصنوعة من الذهب يخرج من بطونها الماء ويدخل النسيم آذانها فتصفر كل صورة بلغتها ..

كل هذا ياجانشاه ترى ومازلت لا ترى ، ولا يهدأ لك قلق واشتياق . فالرؤية لم تكتمل ولا تكتمل حتى تجلس وحدك قدام القصر على كرسى بمفردك تتفكر فى حسن المكان ، ولِمَ كان الأمر وعلام العصيان . حتى إذا حان الوقت وتغير الحال وانفتحت الروح للرؤية أقبل عليه ثلاثة طيور فى صفة كصفة الحمام وفى حجم لم يعرفه من قبل . « ثم إن الطيور حطوا بجانب البحيرة وبعد ذلك نزعوا ما عليهم من الريش فصاروا ثلاث بنات كأنهن الأقمار ليس لهن فى الدنيا شبه .. »

كاد عقل جانشاه أن يذهب وهو يتابع البنات يسبحن ويطلعن إلى البر ويتفرجن فى البستان وعينه تعرف الصغيرة وكأنه يخالط روحها عن بعد ، ويعرف أنها الرؤية التى اشتاقها طول عمره وخرج من بيته وأهله من أجلها . قام جانشاه « وتمشى حتى وصل إليهن فلما قرب منهن سلم عليهن فردت عليه الصغيرة :

ـــ « نحن أتينا من ملكوت الله تعالى إلى هذا المكان . »
وبدأ جانشاه حديث الحب كما يبدأ دائما فى نفوس الرجال :
ـــ « ارحمينى وتعطفى علىّ وارثى لحالى وما جرى لى فى عمرى .. »
وفى وسط الرؤية المكتملة ينغلق الجمال المكتمل على نفسه ويفرض الغربة والوحدة على المحب المقتحم المستسلم فتكلمه وكأنها تجمع الوقت وتختتم الرؤية وكأنه لا يستحقها :
ـــ « دع عنك هذا الكلام واذهب إلى حال سبيلك » ..
ولكن جانشاه يحس الدموع تنفجر من عيونه ويمتلىء جرأة وإصرارا على ما أدرك من رؤية ويتذكر الأشعار التى تعلمها وهو صغير فينطلق جنانه ولسانه يريد أن يقترب منها وأن ينظم لها ما يضطرم فى روحه من جيشان . إنه يبكى وروحه تحس وطأة الحب الذى تملكها فينشد جادا ثقيل الجد :

« بدت لى فى البستان بالحلل الخضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التى
كويت قلوب العاشقين على الجمر
شكوت إليها ما ألاقى من الهوى
فقالت إلى صخر شكوت ولم تدر
فقلت لها إن كان قلبك صخرة
فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما سمع البنات هذا الشعر من جانشاه ضحكن ولعبن وغنين وطربن ثم إن جانشاه أتى إليهن بشىء من الفواكه فأكلن وشربن مع جانشاه ونمن تلك الليلة إلى الصباح ، فلما أصبح الصباح لبست البنات ثيابهن الريش وطرن ذاهبات إلى حال سبيلهن . فلما رآهن جانشاه طائرات وقد غبن عن عيونه كاد عقله أن يطير معهن وزعق زعقة ووقع مغشياً عليه ومكث فى غشيته طول ذلك اليوم .. »
وفى عيونه تحت جفونه المغمضة ارتسمت الحبيبة رؤية لا تريم .

الفصل العاشر

مقام الانتظار وتمكين الصفة

□□ سألت جانشاه :

ـــ متى أحببت السيدة شمسة ؟

فنظر لى متحيرا وكأنه لم يفهم ماذا أعنى وقال لى :

ـــ لِمَ تسأل .. وهل يردها لى السؤال .

وأحسست بقدر من الخجل من نفسى وكدت أتوقف عن السؤال وملاحقته وخفت أن أكون متجاوزا أو أن أبعث فيه ألما يزيد من ألمه .

وقلت لنفسى لم لا أكتفى بأن أسمع الحكاية وإذا به يواصل كلامه وكأنه يتابع ما يجرى فى رأسى :

ـــ لقد انتهت الحكاية منذ أن أحببتها ..

ـــ ألم يكن للحب أول .. أليس هناك بداية للحب ؟

ـــ كل ما حكيته كان قبل الحب .

ـــ إذن فللحب أول !!

ـــ عندما تحب ، تكون الحياة قبل الحب ، انتظارا له ..

ـــ فهل كنت تنتظر ؟

ـــ أنا لا أفعل فى حياتى إلا أن أنتظر ..

ـــ فماذا تنتظر ياجانشاه ؟

ـــ حبى الذى هو أنا ..

ـــ فمن أنت ؟

ـــ أما زلت لا تعلم .. أنا أنتظر .

ـــ إذا كنت تحب فماذا تنتظر ؟

ـــ كل لحظة حب هى انتظار .

ـــ فهل للحب أول .. وهل له آخر ؟

ـــ أهذا ما تعنى بالسؤال ؟

ـــ نعم ..

ـــ اعلم يا حاسب أن الحب رؤية والرؤية لا تقاس .

ـــ فماذا تكون ؟

ـــ هى حال تقع ..

ـــ فاذا وقعت ؟

ـــ أصبحت مقاماً تكون فيه .

ـــ فماذا يجدى الانتظار ؟

ـــ تمكين للمقام فلا يحول .

ـــ وتظل الرؤية قائمة ؟

ـــ مادام الانتظار قائما

ـــ فهل تستطيع أن تحكى لى الرؤية ؟

ـــ كل ما أحكيه هو غير ما وقع .

ـــ كيف إذن أعلمه ؟

ـــ لقد بدأت أحكى ما جرى لى ولكنك أوقفتنى .

ـــ أردت أن أعلم .

ـــ ماذا تريد أن تعلم ؟

ـــ أول الحب وآخره .

ـــ قلت لك إننى أنتظر .

ـــ كيف إذن أُعيده ؟

ـــ إنه لا يعاد لأنه قائم .

ـــ فماذا إذن كان بعد الرؤية .. ؟

ـــ رؤية .

ـــ وبعد الرؤية .

ـــ انتظار للرؤية .

ـــ وبعد الانتظار ؟

ـــ انتظار ..

وتأدبت روحى فصمتُ ورحت أبحث عن عيون الملكه لأرى ما لا يستطيع أن يحكيه جانشاه .

قالت لى الملكه إعلم ياحاسب ان الشيخ نصرا قال للطيور

« إن عندى ولدا صغيرا جاءت به المقادير من بلاد بعيدة إلى هذه الأرض وأريد منكم أن تحملوه وتوصلوه إلى بلاده . فقالوا له سمعاً وطاعة ولم يزل الشيخ يفتش عن جانشاه حتى وجد المقصورة التى نهاه عن فتحها مفتوحة ، فدخل فوجده مغشياً عليه فأتاه بشىء من المياه العطرية ورشه على وجهه فأفاق من غشيته .. »

ــ ياولدى أما قلت لك لا تفتح هذه المقصورة ولا تدخلها ولكن عرفنى ما جرى لك .

فلما حكى جانشاه للشيخ نصر ما لم يستطع ، أو رفض أن يحكيه لى قال له :

ــ ياولدى إن هذه البنات من بنات الجان وفى كل سنة يأتين إلى هذا المكان فيلعبن وينشرحن إلى وقت العصر ثم يذهبن إلى بلادهن .

ــ وأين بلادهن ؟

ــ لا أدرى أين بلادهن ، ولكن حيث تولعت بإحداهن فاقعد عندى إلى مثل هذا اليوم لأنهن يأتين فى السنة القادمة فى مثل هذا اليوم ..

وهكذا بدأ جانشاه الانتظار الذى أصبح هو كل ما فيه ونسى هم بلاده لتفكيره فى بلادهن . إنه يذكر كل لحظة من تلك الليلة البيضاء التى أمضاها معهن وسمعها تتحدث ولكن حديثها كان دائما مع أخواتها وليس معه وكانت تجلس أمامه حرة بكل مفاتنها كأنما لا يثقلها وجوده ولا عينه ولم يعرف اسمها منها ولكن من نداء أخواتها عليها . وعلى الرغم من أنه ليلتها لم يتوقف عن الرغبة فى السؤال إلا أنه لم يجرؤ ولم يتناثر فى حديثهن ما يمكن أن يجعله يعرف . كان يتصور ويتخيل أين تعيش . ويسأل نفسه ولا يستطيع أن يعرف من عرفت من الرجال وماذا تحب وهل تحب أو تعرف أن تحب . ومع أنه لم تكن هناك اجابات على كل هذه الأسئلة فقد كان مكتفيا قانعا بأن يسمعها تتحدث وتغنى وتأكل وتشرب وتقوم أمامه هكذا حرة .. ساقاها الجميلتان مجدولتان مفتوحتان وهى جالسة أو واقفة وذراعاها الطويلتان على جانبيها تحركهما فكأنها ستطير ، وشعرها المنسدل على عنقها يهتز حول وجهها وكأنه يقدم له وجهها وعيونها التى تتجمع فيها أسئلته فلا تزداد إلا جمالاً وغموضا لا يجرؤ على سؤاله كما يفعل الناس بالعيون .

وتقول لى ياجانشاه بعد هذا كله أن ليس للحب أول . إنك طبعا لا تعرف إذا كنت قد أحببت فى هذه الليلة ومتى حدث هذا فى أول الليلة أم فى آخرها أم فى الساعات بينهما ولكنك ولا شك قد رأيت وما رأيت هو الذى أحببت دون أن يكون له « متى » . فأنت لا تعرف متى رأيت أو كيف .. ولكنك تعرف تماما ما رأيت .. فلم تغب شمسة عن

عيونك طول السنة التى اخترت أن تنتظرها دون أن تفكر أن تعود إلى أهلك أو تنهى حكايتك .

وبدا الحب من أوله يتطلب الحيلة وبعض مهارات القنص التى تعرفها وكأنك تتابع الغزالة من جديد . بل لقد ذكرت الغزالة أكثر من مرة خلال هذه السنة وامتلأ داخلك بفراغ موحش وشوق موجع للقلب وأنت تتذكر أنك أكلت من لحمها وأن هذا اللحم قد أصبح جزءاً منك لا ينفصل عنك .

ـــ اعلم ياحاسب أن الشيخ نصرا قال لجانشاه :

« إذا قربت الأيام التى يأتين فيها فكن فى البستان تحت شجرة حين ينزلن البحيرة ويسبحن فيها ويلعبن ويبعدن عن ثيابهن ، فخذ ثياب التى تريدها منهن فإذا نظرنك يطلعن على البر ليلبسن ثيابهن وتقول لك التى أخذت ثيابها بعذوبة كلام وحسن ابتسام أعطنى ثيابى ياأخى حتى ألبسها وأستتر بها ، ومتى قبلت كلامها وأعطيتها ثيابها فإنك لا تبلغ مرادك منها أبدا بل تلبس ثيابها وتروح إلى أهلها ولا تنظرها بعد ذلك أبدا . فإذا ظفرت بثيابها فاحفظها وحطها تحت إبطك ولا تعطيها إياها .. »

فلماذا تخفى ياجانشاه أنك أردتها كما تريدها الآن وأن الرؤية قد قادتك للإرادة حتى قنصتها كما قنصت الغزالة .

ـــ هل هذا ياجانشاه يفسد الحب أو ينقص الرؤية وهل يجعل هذا للحب أول ؟

وأحسست فى صوت جانشاه قدرا من الغضب وهو يقول لى :

إنك لا تفهم ولا تعلم .. فأنت تقيس وتحسب ما حدث ولا تراه وأنت تعيد الحكاية ولا تستطيع أن تنتظر ..

ولملمت نفسى متأدبا محرجا من الدرس الذى تلقيته وإن لم أفهمه تماما وشعرت بالجوع والشوق لطعام الملكة وأدركت حاجتى إلى قدرتها المطلقة على حكاية الحكاية ..

فلما أكلت قالت لى الملكة : اعلم ياحاسب أن جانشاه لما أخذ ثياب البنت التى تعلق قلبه بها رآه البنات « فارتجفت قلوبهن واستترن منه بالماء وأتين إلى قرب البر ثم نظرن إلى وجهه فرأينه كأنه البدر فى ليلة تمامه فقلن له من أنت وكيف أتيت إلى هذا المكان .. »

ورأيت على شفتى جانشاه ابتسامة وضيئة رغم وجهه الباكى وكأنما يتذكر المنظر وأنا أراه ، وأدركت أن هذا نصيبى من الرؤية فمددت بصرى أمسك بتفاصيل أجسامهن وهن

يتسترن بالماء ويتحرك قوامهن العاري داخل سمك الماء ، وكأنهن سبائك الفضة . كانت الأختان بيضاوين فى بدنهما نقاوة وصلابة المعدن . أما السيدة شمسة فكانت عجيبة اللون وكأنها فى لون الغزالة التى قنصها جانشاه . كان لونها فيه حمرة وسمرة وبريق من النعومة والتوتر المشدود وكأن النور يشع منها منكسرا فى الماء ويتجمع حولها ويفردها وإن لم تنفرد أو تبتعد .. وإذا كان هذا نصيبى من الرؤية فأنا لم أر فى الدنيا جمالا مثل جمالها .

وقال جانشاه لهن : تعالوا عندى أحكى لكم حكايتى وأخبركم بما جرى ..

وكدت أقول لجانشاه انظر كيف تقدر على الحكاية . ولكنى بدأت اتعلم قدرا من الانتظار أمسك به لسانى حرصا على ما سنح لى من رؤية وأغمضت عينى تأدبا وحرصا وأنا أسمع حوارا عجيبا استمر واتصل وكأنه حركات قنص وتهرب وإمساك وتملص تتأجج معها فى الفؤاد نيران متوهجة من الحب والانتظار . سمعت صوت السيدة شمسة ، وكأنما أسمعه لأول مرة ، عسليا أشبه بصوت مليكتى يصلك فلا تحس أنه يصلك بل يشدك لتغيب فيه ويَسْلبك القدرة على الانتظار فتود أن تستزيده وهو محسوب بمقدار ...

ـــ ياسيدى ، وقرة عينى ، وثمرة فؤادى ، أعطنى ثيابى حتى ألبسها وأستتر بها وأطلع عندك .. وشهق جانشاه شهقة وكأنه سيموت وقال وكأنه يتشهد ليسبق الموت :

ـــ ياأجمل ما فى الدنيا ، ياسيدة الملاح ، لا يمكن أن أعطيك ثيابك وأقتل نفسى من الغرام .

وجاءنى صوت السيدة شمسة من جديد عسليا تتلاحق فيه الكلمات وكأنها قطرات العسل :

ـــ إن كنت لا تعطينى ثيابى فتأخر عنا قليلاً حتى تطلع أختاى إلى البر ويلبسن ثيابهن وتعطيانى شيئا أستتر به ..

وعلى حين اتجه جانشاه إلى القصر وقلبه يرتجف من شدة العشق وقلبى يكاد يفضحنى صوته المتلاحق والسيدة شمسة تخرج بنورها من الماء لتضع عليها ثوبا سابغا أبيض لا يمكنها من الطيران له أكمام طويلة وفيه خيوط رفيعة من الفضة تلتمع مع نورها . وتمشت وهى « كالبدر الطالع والغزال الرابع حتى وصلت إلى جانشاه فرأته جالسا فوق التخت فسلمت عليه وجلست قريبا منه وقالت :

ـــ يا مليح الوجه أنت الذى قتلتنى وقتلت نفسك ، أخبرنى بما جرى لك حتى ننظر ما خبرك .. »

واقتربت مرة أخرى من جانشاه أريد أن أسمعه يحكى خبره وكدت من جديد أن أسأله ماذا قلت لها ولكننى خفت أن يسبنى من جديد أو أن يتهم عقلى وفهمى وتطلعت إلى مليكتى محتميا مستنجدا فسبقتنى قائلة :

ــ « اعلم ياحاسب أن السيدة شمسة لما علمت أنه مغرم بحبها قامت على قدميها وأخذته من يده وأجلسته بجانبها ومسحت دموعه بكمها وقالت له :

ــ يا مليح الوجه دع عنك هذا البكاء .. وإذا كنت مغرما بى فأعطينى ثيابى ألبسها وأروح أنا وأخوتى إلى أهلى وأعلمهم بما جرى لك فى محبتى ثم أرجع إليك فى بلادك .. »

وخشيت على جانشاه وقد عرفته يسمع الحيلة ولا يعرفها بل يمضى فيها طائعا مختارا . ولكن الحب ــ فيما يبدو ــ قد جعله أكثر حرصاً وجعله البكاء أكثر قدرة على الانتظار والتروى . إن سطوع الرؤية وجمال شمسة قد غيب عن فكره ــ كما غيب عنى ــ هم الأهل والبلد فلم يعد الرواح إلى بلده هو ما يتطلع إليه ولم تعد هناك حيلة تصرفه عما يريد . فما أسعدك ياجانشاه رغم بكائك الذى يبل ثيابك بإرادتك لأجمل ما فى الدنيا ..

ــ أيحل لك من الله أن تقتلينى ظلماً ..

ــ بأى سبب أقتلك ظلماً .

ــ إنك متى لبست ثيابك ورحت من عندى فإنى أموت من وقتى ..

وقتك ياجانشاه هو شمسة وانتظارك إياها هو وقتك الذى تعيش فيه ..

ولم أكن أتوقع من قلة خبرتى بالنساء كيف تفكر شمسة أو أخواتها ولكنها ضحكت وضحكت أخواتها ثم قالت سنرى واستمروا يضحكون ويلعبون أمام جانشاه فى حظ وسرور وكأنما لا نهاية للرؤية حتى أقبل عليهم الشيخ نصر من ملاقاة الطيور فنهضن الجميع قائمين على أقدامهم وسلموا عليه وقبلوا يديه ..

وانشغلت عما قاله الشيخ نصر أو قالوه له بالتفكير فى كيف تفكر النساء . وهل يُفَكرن جميعا مثل شمسة أم أنها وحدها حرة تضع لنفسها قيودها وأنها تعطى وتمنع وفق حساب خاص بها لا أستطيع أنا العاجز المحروم من الحب أن أعرفه أو أحسبه .

ولكن مليكتى تقول لى ياحاسب إن الشيخ نصر أخبر السيدة شمسة بصنعة جانشاه وأنه « من أبناء الملوك وأبوه يحكم على بلاد كابل وقد حوى ملكا عظيما فقالت له سمعا وطاعة ثم أنها قبلت يده ووقفت قدامه فقال لها :

إن كنت صادقة فى قولك فاحلفى أنك لاتخونيه أبدا مادمت على قيد الحياة فحلفت

يمينا عظيما أنها لا تخونه أبدا ولا بد أن تتزوج به وبعد أن حلفت قالت اعلم ياشيخ نصر أنى لا أفارقه أبدا .. »

فماذا تريد ياجانشاه بعد ذلك وماذا تنتظر . لقد ظننت أن حكايتك ، حكيتها أم صمت عنها ، قد انتهت عند هذا الوعد من السيدة شمسة . ولكننى سمعتها وحدى دون أن يخبرنى أحد ، ولا حتى مليكتى ، تتفق سراً مع أختيها على أن تبقى ثلاثة أشهر فى ضيافة الشيخ نصر . ولم أعرف ولم أجرؤ على أن أسأل عن الشهور الثلاث وماذا جرى فيها أو لِمَ كانت ثلاثة أشهر بالتحديد فقد خشيت أن يتهمنى أحد بسوء الأدب أو سوء الحساب .

فلما وفقنى الله أن أكتم رغبتى فى المعرفة قالت لى مليكتى :

اعلم ياحاسب أن « جانشاه هو والسيدة شمسة قعدا عند الشيخ نصر ثلاثة أشهر فى أكل وشرب وحظ عظيم وبعد الثلاثة أشهر قالت السيدة شمسة لجانشاه :

ــ إنى أريد أن أروح إلى بلادك وتتزوج بى وتقيم فيها ــ فقال لهما الشيخ نصر :

ــ اذهب إلى بلادك وتوصى بها . »

وسمعت جانشاه يقول سمعا وطاعة وقد تهللت أساريره بالفرح فخطر لى أنه قد يقع فى حيلة جديدة . ولكنى رأيتهما فى عينى مليكتى والسيدة شمسة تطلب من الشيخ نصر جادة حازمة أن يأمره أن يعطيها ثوبها لتلبسه فأخذته ولبسته وقالت لجانشاه :

ــ اركب فوق ظهرى وأغمض عينيك ..

وفتحت عيونى محدقا وأنا أراه يفعل ما أمرته به « ولما أرادت الطيران قال لها الشيخ نصر قفى حتى أصف لكم بلاد كابل خوفا عليكما أن تغلطا فى الطريق فوقفت حتى وصف لها البلاد وأوصاهما ثم ودعهما وودعت السيدة شمسة أختيها وقالت لهما روحا إلى بلادنا مثل هبوب الريح والبرق اللامع ... »

ووجدتنى أنا أيضا مثل الجان أسترق السمع على هذا المركب العجيب فلم أسمع لهما كلاما إلا حفيف الجناحين الكبيرين وقد امتلآ بالهواء وبضوء الضحى . ورأيتها ترتفع فى السماء وكلما ارتفعت امتد جسمها واستطال وجسد جانشاه يتحول من القعود على ظهرها ليمتد عليه فتطول يداه نهديها ويحويهما كأنما يرفعهما لها ، وراح جسده يهتز ويختلج مثل رفة الجناحين وكأن جسديهما قد صارا جسدا واحدا .

وظلت روحى تتبعهما من الضحى إلى العصر دون أن أسمع منهما إلا آهات متقطعة لا أعرف إن كانت من بكاء جانشاه أم من عزم السيدة شمسة فى الطيران والإصعاد فى

الفضاء .. حتى إذا مالت الشمس فى الغرب سمعت السيدة شمسة تقول فى همس يزيده حفيف الأجنحة خفوتا ...

ـــ بللتنى دموع بدنك . وفى هذا الوادى نهر وأثمار « وقصدى أن ننزل لنتفرج ونبات فيه هذه الليلة » .

وأغمضت عينى وأنا أراه يقبلها بين عينيها وهما يسبحان فى النهر ويأكلان وينامان تحت شجرة حتى توقظهما أشعة الشمس ليطيرا من جديد وأنا صاح لا أنام .

ووصل جانشاه والسيدة شمسة إلى بلاد كابل ورأيت مليكتى تستعد أن تحكى لى كيف استقبلهما أبوه وكيف كانت فرحته وهو يقول للسيدة شمسة الحمد لله الذى وفقك حتى جمعت بينى وبين ولدى إن هذا لهو الفوز العظيم ولكنى أريد منك أن تتمنى علىَّ ما تشتهينه فقالت له شمسة تمنيت عليك عمارة قصر وسط بستان والماء يجرى تحته ...

و لم أترك مليكتى تكمل لى فقد كانت روحى مضطربة لا أستطيع أن أجمعها ولا أستطيع أن أدرك معانى ما تقول وقلت لها :

ـــ يا مليكتى أنا أعلم ماذا يفعل الآباء عندما يلتقون بأبنائهم بعد هذا الغياب الطويل ولكنى لا أعلم كيف تفكر شمسة وماذا تنوى أن تفعل بعد هذا الطيران الطويل ..

قالت لى مليكتى اعلم يا حاسب أن جانشاه « حين علم بصدور الأمر ببناء القصر أمر الصناع أن يأتوا بعمود من الرخام الأبيض وأن ينقروه ويجوفوه ويجعلوه على صورة صندوق ففعلوا ما أمرهم ، ثم أن جانشاه أخذ ثوب السيدة شمسة التى تطير به وحطه فى ذلك العمود وجعله فى أساس القصر وأمر البنائين أن يبنوا فوقه القناطر التى عليها القصر ولما تم فرشوه وصار قصرا عظيما . وفى تلك المدة عمل الملك طيغموس عرس جانشاه وصار فرحا عظيما وزفوا السيدة شمسة إلى ذلك القصر وذهب كل منهم إلى حال سبيله ..

وأدركت أنا يا جانشاه قبل أن تكمل مليكتى الحكاية ، أن الحيلة قد اكتملت حولك وأن ضرورات الانتظار قد أطبقت عليك مرة أخرى بعد أن تمكنت منك الصفة و لم يعد لك منها فكاك .

تسللت إلى القصر وحيدا بالليل ورأيت السيدة شمسة وقد انتصب جسدها ومشت داخل القصر مليكة مسيطرة حتى شمت رائحة ثوبها الريش ورأيتها تصبر حتى انتصف الليل واستغرق جانشاه فى النوم « ثم قامت وتوجهت إلى العمود الذى عليه القناطر وحفرت بجانبه حتى وصلت إلى العمود الذى فيه الثوب وأخرجته ولبسته وطارت وجلست على أعلى القصر » .

وسمعتها من موضعها وثوبها تتحرك أجنحته وهى واقفة ، تصيح على الخدم والأعوان أن يوقظوا لها جانشاه لتودعه فلما قدم عليها مسرعا والنوم مازال يخالطه ويصيح بها كيف فعلت هذه الفعال .

ومن أعلى القصر نزل صوتها العسلى يقول له :

ــ يا حبيبى والله إنى أحبك وفرحت فرحا شديدا حيث أوصلتك إلى بلادك ورأيت أهلك فإن كنت تحبنى كما أحبك فتعال عندى إلى قلعة جوهر تكنى ...

يا حبيبى يا جانشاه لقد رأيتها تطير من ساعتها وتمضى إلى أهلها فلِمَ نمت يا جانشاه وكيف أضعت لحظة من لحظات الانتظار .

الفصل الحادى عشر

لاتحسبن أحدا سعيدا حتى يموت

□□ لقد تكسرت قواعد الحكاية أم أنها الرؤية التى تنكسر . أصبحت الإعادة أصعب ما يكون لأن الصفة التى أصبح فيها جانشاه صارت كما يقول عصية على الحكى والإعادة . هل هذا معنى الأزمة . فعندما تتأزم الأمور بمعنى أنها تصبح متوترة متشابكة لا تستطيع أن تخلص خيوطها بعضها من البعض الآخر ولا تستطيع أن تمسك بطرف من أطرافها فتشدها لتنحلّ ، عندما تتأزم الأمور على هذا النحو تحتاج إلى لون جديد من الصبر والانتظار يستطيع أن يواجه الشك وفقدان الأمل . ولقد ساورنى الشك فى كل شىء .. والشك شىء لم أعرفه من قبل طول حكايتى أو طول جهدى فى الإعادة .. وليس من السهل أن أحدد ما هو هذا الشك ، فليس الشك الذى انتشر مع « فعال » السيدة شمسة هو عكس الإيمان أو التصديق . إنه شىء أصعب من ذلك . فأنا مازلت ولله الحمد مؤمنا بالمكتوب وبقضاء الله وأضرع إلى الله ألا يحرمنى هذا . ولست شاكا بمعنى أننى لا أصدق شيئا مما أعدت حكايته . فأنا فى الحقيقة أصدق كل جزئياته وأعتقد أنه واقع قد جرى علىّ وأننى حكيته بكل ما أستطيع من صدق . ولكننى مع ذلك أشك فى كل شىء . ففيم أشك إذن وما معنى هذا الشك الذى يملأ نفسى ويكاد يعطلها عن أن تسمع أو أن ترى وأن تحكى أو تعيد ..

لقد انفتحت عيونى غير مصدق وأنا أرى السيدة شمسة تحرك أجنحتها من موقعها فوق أعلى القصر وتنطلق دون سبب أو تفسير فى أجواز الفضاء مبتعدة عن هذا المسكين الواقف على الأرض الصاحى من نوم عميق ، لا يدرى أحد ماذا كان يحلم أو يفكر خلاله . لقد أصبح هو الآخر ، مثلها ، بعيدا عنى بعد أن كنته أوقاتا طويلة وبعد أن أصبح حبيب روحى وقرينها . فلِمَ فعلت السيدة شمسة هذه الفعال . لما طارت وتركته وهى تقول له يا حبيبى ، وما معنى أن تضعه فى اختبار جديد ، وأن تطلب منه المجىء إلى قلعة جوهر تكنى إذا كان يحبها ، وكأنه من الممكن أو من المشكوك فيه أن يحبها . لقد أرغمه حبها على أن يكون ما هو منذ رآها فكيف تقول له إذا كنت أنت أنت تعال .. ويأتى إلى أين ، وأين هذه القلعة التى لم يسمع أحد باسمها من قبل وهل هى قلعة موجودة فعلا .. جوهر تكنى .. ومن الذى يفسر هذا الاسم ، أصحاب التقاويم والجغرافيا وعروض الأرض والسماء أم أصحاب اللغة وعلماء الأسماء والحروف .. وهل هى كناية أم واقع .. كيف تطير السيدة شمسة بعد الزواج وبعد أن زفوها إلى القصر .. هل حدث ما لا يحكى ليلة الزفاف . هل تكلم جانشاه بما لا ينبغى عليه أن يقوله أو هل حكت له هى ما كان من الأوجب ألا

تحكيه .. وهل كانت هناك ليلة زفاف .. وكيف نام جانشاه وحده وتركها تقوم لتتمشى فى القصر فى منتصف الليل وحدها .. هل قامت من فراشه وتركته نائما أم هى لم تدخل الفراش وسقط هو نائما .. هل هى تحبه حقا أم أنها قد رضخت واستسلمت للقنص والصيد والمكتوب .. وهل كان جانشاه يحبها حقا وهو ينام ، هل حبه الذى قام من ساعة الرؤية ظل كما هو ، أم حدث فيه التصدع أو الانهيار أو التهديد بهما ما جعله ينام ويغفل فيجهل ما يجرى فى نفسها وفى روحها وما تعتزمه أو اعتزمته من وراء ظهره أو من وراء نومه . وهل يجوز للمحب أن ينام . إن فعال السيدة شمسة لا تبعث على التساؤل بل على الشك وفعال جانشاه لا تثير الرغبة فى المعرفة قدر ما تثير من الحكم عليه والاتهام له .. يا ربى .. ما كل هذا الشك الذى انطلق علىَّ من كل جانب وكأنه طيور جارحة تأكل كبدى وأنا معلق هكذا لا أستطيع أن أتقدم أو أن ألتفت يمينا أو شمالا وسط الحكاية والواقع والمنظر ..

إننى لا أستطيع أن ألتفت إلى أحد بل لا أحس أن أحدا ، على الإطلاق ، يستطيع أن يرد هذه الطيور الجارحة عن كبدى ولا حتى مليكتى العارفة . إننى أخشى لو التفت إليها الآن ، لو سألتها ، فلن تفعل إلا أن تزيد سحابات الطيور كثافة وتجعل مناقيرها ومخالبها أكثر حدة .. فهل تستطيع مليكتى أن تقدم لى سببا وتفسيرا لكل ما حدث من فعال ، فعال السيدة شمسة أو فعال أخى وحبيبى جانشاه .. لو أنها تستطيع لفَعلتْ دون أن أسألها ، فهى تعرف ما يجرى فى روحى قبل أن يقع عندما يقع وهى تقصد كل ما يقع وما تحكى ولا تقول لى أبدا إلا ما هو صادق وحقيقى .. فإذا كانت لم تقل لى ، فأنا لا أشعر منها رغبة فى الشرح والتفسير ولا حتى فى التوجيه والتقريع لى ولا أرى فى عينيها ولو ظل ميل نحو الحنان علىّ أو الإشفاق بى ..

يا سيدتى شمسة هل معنى أنك سيدة أنك حرة فى فعالك وأن فعالك تعلو عن الفهم أم هل عدت إلى ماض لا نعرفه ونحن جميعا لا نعرف عنك شيئا قبل الحب ومن المستحيل أن نعرف . هل ما فعلت هو من خصائص الجان أم من خصال النساء .. وهل الخصائص والخصال هى من المكتوب أم من مسئولية الإنسان . أم أن هذا كله هو السر المعقد المتراكب والمتشابك للحب الذى لا يقدر على احتماله إلا الإنسان ولو كان حبا للجان ..

فأين كمال واكتمال الرؤية وأين صفاء وانتظار الحب .. وأين الحق أو المعنى الذى يرد كل ما سقط علىّ من شك وحيرة وتردد .. وإلى أين أمضى الآن بنفسى وسط عالم الطيور التى أطلقتها السيدة شمسة بفعالها وجانشاه بصفته وعدم قدرته على الحكاية ... وهل هذا

العالم من التحليق والانطلاق بلا قيود هو ما تريدنى مليكتى العارفة أن أدخله حتى أعجز عن كل حساب ، وتقصر روحى المندفعة إلى المعرفة ، عن كل معرفة .. هل هذا ما تقصدين وتريدين يا مليكتى ..

ولم يجئنى أى جواب ولم أسمع أى رد إلا هذا الحفيف المستمر المتزايد من الأجنحة وارتطام الطيور الغامضة الشكل والهدف ببدنى وروحى تنتزع منها ما تريد وتقطع منها قطعا صغيرة وكبيرة تأكلها أو تتساقط من مناقيرها ، وكأننى قد أصبحت غزالة جانشاه المذبوحة ، أو كأننى ارتكبت جرما أعاقب عليه دون أن أعلم أو أن يصدر به أحد حكما ليجرى علىّ ..

ماذا فعلت يا حاسب كريم الدين ليجرى عليك كل هذا وما هى هذه المسئولية التى حملتها لنفسك فعجزت ، نعم عجزت ، عن حملها ... وماذا يجدى الصدق وماذا تنفع المعرفة أمام سر الحب الذى يوقف الحكاية والحياة أو يحركهما دون سبب أو إجابة على سؤال ..

كومت نفسى على الأرض جالسا وقد رفعت ركبتى حتى كادتا تلمسان صدرى ووضعت ذراعى على رأسى وعينى أحمى نفسى وأخفيها من الطيور ورحت أغمض عينى وأفتحهما وأشد بذراعى على رأسى وعيونى وأدفع بركبتى ما استطعت على صدرى وكأننى جنين مبتسر أحاول أن أعرف أين أنا على وجه التحديد ومن أين وإلى أين أنا ذاهب ..

وعندما خطرت لى أسئلة الكينونة الأولى بدأت أجنحة الطيور تتباعد وتخف من حولى وأحسستها وهى تمضى فرادى وجماعات تاركة لى حفيف أجنحتها يخفت كلما تباعدت أو قلت أعدادها ، حتى صرت وحيدا تماما فى ضوء شمس غاربة لا تأفل ، وفى صمت أرض غريبة عرفتها أول ما عرفت جانشاه ورأيته واقفا غير جالس بين القبرين وقد أدار ظهره لى ومالت رقبته بين كتفيه وكأنه ينظر بعينيه اللتين لا أراهما إلى البعد البعيد فى السماء والجو الحر المفتوح حيث تطير الطيور . وعرفت عند أقدامه ، وهو ينظر إلىّ ويرقبنى ، بلوقيا وهو جالس بزربونه وقد خلع لثامه وكأنه ينتظرنى أو ينتظر منى أن أتجه إليه ...

ـــ بلوقيا ، أين نحن الآن .

ـــ عند أقدام جانشاه ننتظر .

ـــ وماذا ننتظر .

ـــ المكتوب ..

ـــ فهل عرفت المكتوب .

ـــ لا يعلم المكتوب إلا الله ..

ـــ فماذا نفعل نحن ..

ـــ نرضى بالمكتوب ..

ـــ فهل إذا رضينا نعرفه ..

ـــ إذا رضينا صرنا سعداء

وكأنما كان جانشاه يسمع ما يقوله بلوقيا فقد أدار وجهه إلينا وهو مازال واقفا وقال كأنما ينذرنا :

ـــ لا تحسبن أحداً سعيدا حتى يموت .

فقمت واقفا وكأنما أريد أن أنتهز الفرصة وسألت جانشاه :

ـــ هل تكمل لنا الحكاية .

فأجابنى بشىء قليل من الزراية وكثير من الإشفاق ..

ـــ اذهب عنى فأنا أنتظر ..

وأدار ظهره من جديد ثم جلس مقعيا على الأرض بين القبرين وتركنى وجها لوجه مع بلوقيا فسألته :

ـــ هل حكى لك جانشاه الحكاية .

ـــ إن الحكاية مكتوبة ..

ـــ فهل تستطيع أن تعيدها علىّ ..

ـــ كانت الإعادة حقك ورغبتك .

ـــ كنت أراها مسئوليتى .

ـــ فماذا ترى الآن ؟

ـــ كنت مغرورا وأنا أعترف بالذنب وأندم عليه ..

ـــ أتعرف الذنب ولا تعرف القراءة للمكتوب ..

ـــ وكيف أقرأ المكتوب .

ـــ إذا رضيت قرأته ..

وخشيت أن أسأله كيف أرضى بالمكتوب فيصمت أو يسبنى أو تهاجمنى طيور الشك من جديد فقلت له متحايلا متلطفا ..

ــ أنت أخي يا بلوقيا فإذا كانت الحكاية قد بلغتك فأخبرنى بها لأعلم ذنبى وأتوب عنه ..

وكأنما أشفق على قلب بلوقيا وتحنن وأنا أعترف بالذنب وأعلن التوبة .

فقال لى :

ــ بلغنى يا حاسب أن المكتوب على جانشاه كان مازال لم ينقض وأن الطريق إلى ما بين القبرين كان مازال طويلا وأن سياحته لم تنته .

ــ فهل تنتهى سياحته .. وهل انتهت سياحتك أنت .

ــ إنك يا حاسب تكثر الأسئلة ، وأسئلتك تسد عليك الطريق .

ــ معذرة يا أخى .. أنا حائر بائر لا أعرف أين أتجه ..

ــ أنت يا حاسب لا تحب .

ــ أنا أحببتك يا بلوقيا وأحب جانشاه ، وأحب مليكتى العارفة .. ولا أنكر أننى أحب نفسى ..

ــ وزعت همك يا حاسب ولم تحب .. فلم تقدر على الصنعة ولم تحتمل الصفة .

ــ أهذا حكمك علىّ يابلوقيا ؟

ــ الحكم لله .. وعلينا أن نرضى بالمكتوب ..

ووجدتنى أنفجر فى بكاء شديد وأريد أن أنوح كما تنوح النساء وكأن نفسى التى أحبها قد ضربت عليها الذلة والمسكنة والوحدة التى لا يكسرها أى اتصال أو نور ..

وسألت نفسى ماذا أحب وهل أحببت فعلا . هل أحبتنى أمى وأحببتها وهل أحببت تلك الزوجة التى تركتها فى بلدى وهل تحبنى .. وهل أحببت نفسى حقا .. أم أنا فى الحقيقة وحيد خائف مرتعد من كل شيء ومن كل طريق . ما هذا الإرث الذى تركه لى أبى ولماذا تركنى هكذا بأوراقه التى لم أفهمها بعد .. وأى شيء أملك أنا الآن ..

تصاعد بكائى وارتفع صوت نشيجى فلم أعد أسمع صوت بكاء جانشاه ولا نهنهته التى لا تنتهى ورأيت بلوقيا يقوم واقفا وينفض التراب عن ملابسه وكأنه ينفضنى أنا ويخرج من مخلاته قنينة العشب المغلى ويدهن قدميه العاريتين من جديد وراح ينظر إلى وإلى جانشاه طويلا ثم قال بصوت كأنه لا يصدر عنه بل هو قادم من الجو المحيط بنا فى الغروب الذى لا ينتهى :

ـــ بلوقيا .. إلى القبر العتيد سائر .. كن سعيدا يا جانشاه بما تنتظر .. وأنت يا حاسب كن سعيدا بالمكتوب ..

وقمت لأودعه وقد عرفت فيه عزما وتصميما لا تردد فيه ولكنه كان قد خطا خطواته السريعة المتلاحقة متجها إلى البحر وجانشاه يقول وهو يبكى :

لا تحسبن أحدا سعيدا حتى يموت

وانطلقت روحى وراء بلوقيا تريد أن تمسك به فإذا به يسير على الماء فى البحر ليصل بعد خطوات إلى جزيرة لم تكن هناك وإذا به فى الجزيرة وكأنها الجنة يخاطب طيرا من اللؤلؤ والزمرد الأخضر وهو يسبح الله تعالى ويصلى على محمد ﷺ . وسأله بلوقيا : من أنت وما شأنك . قال له أنا من طيور الجنة وخرجت وراء آدم عندما أخرجه الله منها ، ورأيت ورقاته الأربع التى كان يستتر بها تقع على الأرض فيأكل واحدة منها الدود الذى يصنع الحرير وتأكل الغزلان الثانية فتصنع المسك والثالثة أكلها النحل ليصنع منها العسل أما الرابعة فوقعت فى الهند ليخرج منها البهار . وقد مَنَّ الله علىّ بعد أن أوصلت الورقات الأربع إلى أماكنها المكتوبة بهذه البقعة التى مكثت فيها أُسبح الله وأصلى على نبيه وفى كل جمعة تجتمع هنا فى هذا المكان الأولياء والأقطاب الذين فى الدنيا ويزورونه ويأكلون من سماط من ضيافة الله يرتفع إلى السماء إذا شبعوا ولا ينقص منه شىء ..

والتفت بلوقيا إلى يمينه فإذا بجانبه الخضر عليه السلام فسلم عليه وقبل يده وقال له بصوت لم أعرفه لبلوقيا من قبل :

ـــ أنقذنى من هذه الكربة وأجرك على الله فقد أشرفت على الهلاك وما بقيت لى حيلة .. وتتساقط كلمات من فم الخضر لا أسمع منها إلا قوله : ادعُ الله تعالى أن يأذن لى أن أوصلك إلى مصر ..

وتوقفت دموعى ونسيتُ كل شىء وأنا أسمع اسم مصر وبلوقيا يبكى ويتضرع إلى الله . وإذا بالخضر عليه السلام يقول لبلوقيا ارفع رأسك فقد تقبل الله دعاءك وألهمنى أن أوصلك . تعلق بى واقبض علىّ بيديك وأغمض عينيك ..

وأغمضت عينى ومددت يدى أريد أن أمسك بذيل أو تلابيب الخضر ولكنه فى غمضة عين كان يقف أمام بيت بلوقيا فى مصر وبلوقيا يلتفتُ ليودعه فلم يجده ولم أر أنا إلا بلوقيا على صدر أمه يبكى تارة ويضحك أخرى حتى انغلق باب الدار ولم أعد أرى شيئا .

وسمعتُ ، وكأنما ينحدر إلىّ من أعماق الماضى صوت مليكتى العارفة العسلى تقول لى فى هدوء :

ـــ كفى بكاء يا حاسب فماذا يجديك البكاء لقد عاد بلوقيا عندما أذن له الله ليعود فعليك مع جانشاه أن تنتظر .

فقلت لها وأنا أواصل البكاء :

ـــ إن بلوقيا سعيد الآن مع أهله .

فردت عليّ وكأنها تستعيد صمتها الطويل .

ـــ لا تحسبن أحدا سعيدا حتى يموت .

وصمتت مليكتى من جديد وتركتنى وحيدا لأنام .

الفصل الثانى عشر

الطريق الضائع والوكر القديم

□□ صحوت من النوم مقرح العيون من البكاء مفزعا من رحيل بلوقيا ومثقلا بحلم غريب واضح المعالم والمشاعر وكأنه جرى لى فى اليقظة . وعلى الرغم من أننى كنت ممسكا فى ذاكرتى بالحلم حتى لا أنساه ولا أضيعه فقد كان أول ما جاء إلى ذهنى وسمعى وأنا أفتح عيونى صوت بلوقيا الذى سمعته آخر مرة وهو يقول ضارعا للخضر عليه السلام انقذنى من هذه الكربة فقد أشرفت على الهلاك وما بقيت لى حيلة . وسألت نفسى هل بقيت لك أنت ياحاسب حيلة .

وهفت روحى إلى مليكتى أريد أن أضرع لها كما تضرع بلوقيا للخضر وأن أتوسل إليها أن تنقذنى من هذه الكربة وأن أسألها سر غيبتها وصمتها وسبب العقاب الذى نزل بى فصرت هكذا منبوذا مطرودا أحلم بما لا أعرف له تفسيرا أو معنى ..

ونظرتُ إلى مكانها المعهود الذى تعودت أن أراها فيه منذ نزولى عندها ولكننى فزعت فزعا عظيما وأنا لا أراها فى موضعها ولا أبصر وجهها المنير المضىء ولا عيونها المسدلة الأهداب .. وكدت أصيح من الفزع لا أعرف كيف أصرخ عليها وكيف أناديها ورحت أتطلع حولى أظننى أنا أيضا قد انتقلت من عندها أو عدت إلى بلادى ولكنى لم ألبث أن رأيتها قادمة علىَّ تنير وحدتى وتخفف فزعتى بابتسامتها العارفة المحيطة بكل شىء محمولة على طبقها الذهبى وحولها أعوانها وحشمها من الحيات الكريمات حتى إذا نزلن إلى حيث كانت لى دائما قالت مشيرة لى أن أجلس :

ــ ألن تتعلم الانتظار أبدا ياحاسب ..

وأمرت جميع من حولها بالانصراف إلا واحدة قالت لها أحضرى ما أحضرتُ لحاسب من هدايا .. وغابت الوصيفة لحظة ثم عادت وعلى رأسها الدقيق أشبه ما يكون بوسادة بيضاء ناصعة البياض وقد رتبت عليها وكأنها منضدة صغيرة أو سماط مخصوص مجموعة من الأشياء لم أعرفها أو أميزها حتى سمتها لى الملكة وهى تأمر أن توضع أمامى وأنا جالس :

ــ هذا ثوب من الحرير بدلا من ثوبك الذى اتسخ وبللته دموع عينيك وبدنك ، وهذه قطعة من المسك لا مثيل لحجمها تعلقها حول رقبتك ، وتحت هذا الغطاء كوب صغير من العسل الصافى عليك أن تشربه الآن ففيه شفاء لك ، وفى هذه الصرة الصغيرة أنواع من بهار الهند ينعش روحك ويبعث فيك النشاط والراحة .. أما الوسادة فهى لك أيضا محشوة بسلخ كرائم الحيات لتجلس عليها وتستريح وأنت معى فتستطيع أن تنتظر ..

و لم أنتظر بل أقبلت مندفعا إلى أشيائى التى كأنها جاءت من الجنة وكرعت كوب العسل

ولبست ثوبى الجديد بعد أن خلعت أمامها ما كان علىّ من ثياب ، و لم أشعر بالخجل وأنا أتعرى فقد أدارت وجهها الجميل حتى كسوت نفسى وعلقت المسك فى رقبتى ورحت أشم وأذوق أنواع البهار وأنا أنعم جالسا على وسادتى الناعمة ..

وعلى الرغم من أننى قد أصبحت فى حال مغاير تماما للحال الذى نمت فيه إلا أننى لم أنسَ حلمى فانفجرت دون تأدب أو تمهيد أقول لها :

ـــ حلمت أننى مطرود معاقب ..

فقاطعتنى رفيقة لى :

ـــ ألا تترك حلمك لنفسك ..

فقلت لها مصرا مندفعا :

ـــ أنا لا أعرف ولا أستطيع أن أحجب عنك شيئا مما يجرى لى فأنت تعلمين كل ما يقع علىّ وإن أخفيته . لقد حلمت أننى أهب من فراشى الذى كنت أنام فيه فى بيتى فى مصر مطرودا معاقبا مكشوف العورة وأن كل ما فى يدى أوراق أبى الخمس أحاول أن أستر بها عورتى ولكنها تتساقط من يدى . وها هى أوراق أبى فى جلد الرق الذى وضعتها فيه أريد أن أخيطها من جديد فى ثوبى الجديد الذى أحضرته لى .. إننى لم أطلعك عليها من قبل فهل تقرأينها لى وتفسرين المكتوب ..

ـــ أنا لا أقرأ المكتوب ولكنى أرضى به فأعلمه .. رد أوراقك إلى ثوبك واقرأ الورقة الأخيرة فقد كدت أن تمتلك إرث أبيك ..

و لم أفهم ماذا تعنى مليكتى بقولها هذا ولكنى خفت وأنا أتأمل وجهها الجميل أن تتساقط الأوراق من يدى وأن يعاودنى حلمى المفزع المخجل فتطلعت محترزا فى الورقة الأخيرة وأعدت قراءة ما فيها من كلمات أحفظها ...:

« ... لأن الذى وراء الكينونة هو الحب . وليس الحب طريقا ولكنه سياحة متواصلة وانتظار مستمر للموت لا ينتهى ولا حتى به .. »

وامتلأت روحى معرفة بمعان جديدة ، كثوبى الحريرى ، لكلمات أبى القديمة فأخفيتها بين لحمى وثوبى منتظراً أن أخيطها فيما بعد عندما أعود إلى أهلى . وعرفت فى قرارة نفسى ، من مسها ومن عيون الملكة ، أن على أن أنتظر .

ـــ ماذا تنتظر ياحاسب .

ـــ أن أعلم ما جرى لجانشاه بعد طيران السيدة شمسة من أعلى القصر وسبب قعوده بين القبرين ..

ــ ألم تلقه وتسأله ؟

ــ لقد أبى على الحكاية وضن بلوقيا بما بلغه منها ..

ــ لم يتأب عليك أحد و لم يضن . لقد ملأت روحك طيور الشك فطارت منك الحكاية واستعصت عليك الإعادة .

ــ فماذا أفعل وقد عرفت الذنب وأردت التوبة ؟ .

و لم تجبنى مليكتى ولكنها سألتنى سؤالا لم أكن أتوقعه أبدا و لم أكن أعرف أن له إجابة أو ردا فى روحى :

ــ هل تحبنى ياحاسب ..

فاختلطت علىّ المعانى وتزاحمت فى فمى الكلمات لا أعرف كيف أرتبها أو أسويها وقلت وكأننى مرغم :

ــ هل أحبك ؟!..

فكررت سؤالها مبتسمة :

ــ هل تحبنى ياحاسب ؟ .

وازدادت حيرتى وفتحت فمى مشدوها دون أن أستطيع أن أتكلم وتكاثرت الأسئلة فى داخلى لا أستطيع أن أطلقها إلا متقطعة غير مبينة .

ــ أحبك ؟!.. ماذا تعنين .. أنت مليكتى العارفة .. ذات القدرة والسلطان .. وذات الجمال وكل الكمال الذى أعرفه .. أنت الماضى والآتى وكل الزمان .. أنت المكان والأين الذى أنا فيه .. أنت المستحيل الذى أنشده دون أن أعرفه .. أنت القيمة التى أسعى لها بكل ما أعرف من صدق وإخلاص .. أنت .. أنت .. أنت المعنى والقصد .. أنت .. أنت .

ــ كفى ياحاسب . لا تكمل .. إنك لا تحب إلا نفسك ..

ــ أنا لا أعلم ماذا أقول ولا كيف أقوله ..

ــ ادنُ إذن واقترب .. وانظر فى عينى وانتظر ..

فلما رفعت عينى إلى عينها شمل روحى الهدوء والصفاء وعاودتنى قدرتى على التلقى والفهم وأنا أسمعها بصوتها العسلى تقول لى وكأن لم يكن بيننا حوار :

ــ اعلم ياحاسب أن جانشاه « لما سمع من السيدة شمسة ذلك الكلام كاد أن يموت من الجزع ووقع مغشيا عليه فمضوا إلى أبيه وأعلموه بذلك فركب أبوه وتوجه إلى القصر ودخل على ولده فرآه مطروحا على الأرض فبكى بكاء شديدا .. ولما أفاق جانشاه وجد أباه عند رأسه فبكى من فراق زوجته .. »

وأحسست بحنان دافق على جانشاه الذى أراه دائما باكيا تجرى دموعه وكأنما قد توقف به الزمن ، وقلت لنفسى لقد أسأت الظن به وحسبته قد أوقع الرؤية فتكسرت فى روحه . وعرفت فى نفسى أن الذى لا يقدر على حمل الرؤية أو المضى فى طريق الحب هو أنا الذى يسأل ولا ينتظر . وظللت أنظر إلى دموع جانشاه وأبوه يرسل إلى وزرائه الأربعة ليجمعوا كل من فى المدينة من التجار ليسألهم عن قلعة جوهر تكنى فلم يخبرهم عنها أحد وبدأ أبوه يفكر فى أن يحضر له غيرها من النساء .. وفعل .. وجئن .. من كل صنف ومن كل لون . ورأيت أسرابا من الجوارى يتبدلن على فراش جانشاه وهو باك راقد لا يكاد ينظر إليهن وقد تعطلت كل حواسه فلا يكاد يرى أو يشم أو يستطيع أن يلمس .. ومرض جانشاه لا يكاد يكلم أباه أو أحدا غيره والرجل مشغول بابنه عن الحكم حتى جاءت الحرب على حدوده وغزاه كفيد ملك الهند بجيوش كبيرة لم يكن مستعدا لها ودخل العدو بلاده يفسق فى الرعية ويذبح الكبار ويأسر الصغار وجانشاه لا يقوم من فراشه حتى كاد أبوه أن يهزم تماما وبدأ يباشر الحرب بنفسه ويرسل الجواسيس إلى أرض أعدائه ويطلب من عدوه أن يبارزه ويجمع من الجيوش والفرسان ما مكنه من كسب معركة من العدو وصارت الحرب بينهما سجالا لا يبدو فيها نصر أو هزيمة .. وانشغل أبو جانشاه تماما عنه فلم يره لأكثر من شهر وظل جانشاه وحيدا لا يأذن بالدخول عليه لأحد من الجوارى اللاتى كن فى خدمته فانتابه القلق الشديد على أبيه فى وحدته دون أن تفارقه رجفة البدن التى عرفها على ظهر السيدة شمسة وهما طائران من عند الشيخ نصر إلى بلاده .

وقال جانشاه « لبعض أتباعه ما خبر أبى حتى أنه لم يأت فأخبروه بما جرى لأبيه .. »

ولست أدرى كيف يختار جانشاه دائما عندما يكون هناك طريقان أمامه وعليه أن يعزم على السلوك فى واحد منهما ، وكيف يستطيع دائما أن يخفى إرادته عمن حوله حتى يصبح وحيدا من جديد فى الطريق الذى اختاره وهل الحيلة هنا هى صيانة للرؤية حتى لا يقوم سواها أم أنها توجه فطرى فى البدن الذى يُحب ليصل إلى من يحب .

قام جانشاه من فراشه يحمل رجفته وقال لأتباعه « آتونى بجوادى حتى أذهب إلى أبى .. وأخذ معه ألف فارس وسار حتى صار الناس يقولون إن جانشاه ذهب إلى أبيه ليقاتل معه .. »

وتسللت روحى إلى قلب جانشاه وباله وقد عرفت أن مليكتى بصوتها وقدرتها على الحكاية ، قد ردت لى قدرتى على ذلك وبدأت أحس بالفرح والسعادة وأنا أعيد ما أسمع وأرى ..

وسمعت جانشاه يقول « فى نفسه أنا مشغول بنفسى فالرأى أن آخذ فرسى وأسير إلى مدينة اليهود » . وسار على رأس الألف فارس حتى وقت المساء ثم نزلوا فى مرج عظيم وباتوا بذلك المرج فلما ناموا وعلم جانشاه أن عسكره ناموا كلهم قام فى خفية وشد وسطه وركب جواده وسار إلى بغداد لأنه كان سمع من اليهود أن تأتيهم فى كل سنتين قافلة من بغداد وقال فى نفسه إذا وصلت إلى بغداد أسير مع القافلة حتى أصل إلى مدينة اليهود وصممت نفسه على ذلك .. »

وهكذا اختار جانشاه وشد وسطه يحتمل مشقة الطريق والسفر البعيد دون أن يوقف الحزام الذى شد به ظهره رجفة البدن القائمة من مس الحبيبة النائية ..

« .. وصار جانشاه من أجل أبيه وفراق محبوبته حزينا مهموما جريح القلب قريح العين سهران الليل والنهار أما أبوه فإنه لما علم بفقده جمع عساكره وجيوشه ورجع عن حرب عدوه وتوجه إلى مدينته ودخلها وغلق أبوابها وحصن أسوارها وصار هاربا من الملك كفيد وفى كل شهر يجىء ويرجع بهم إلى الخيام ليداوى المجروحين من الرجال فأما أهل مدينة الملك طيغموس فإنهم عند انصراف العدو عنهم يشتغلون بإصلاح السلاح وتحصين الأسوار وتهيئة المنجنيقات ومكث الملك طيغموس والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين والحرب مستمرة بينهما ... »

واستعصى على أن أعرف كيف كان يفكر جانشاه فى أبيه وأهل بلده وهو يقطع البرارى والقفار أياما وليالى حتى وصل إلى النهر بجانب مدينة اليهود وجلس على شاطئه وصبر إلى يوم السبت . وقلت أنا فى نفسى ما جدوى الرجوع إلى الأهل والبلد إذا كان المرء قادرا أن يختار الطريق الذى يبعده عنهم مهما كانت الشدة التى هم فيها . ما أقسى قلب الرجل عندما يحب وأضعفه ، وما أوفاه وما أجحده . وهل يستطيع المرء اذا تملكت هذه الرجفة فى البدن أن يبرر ما يفعل أو أن يفسره .. وكيف يظل المرء مع كل هذا الصراع بداخله عارفا بالطريق مصمما على المضى فيه ..

كان الطريق طويلا مريرا ولكنه كان معروفا قد قطعه جانشاه من قبل فجعله التوقع وسبق المعرفة أكثر صبرا وحيلة وإن لم يجعله أقل تلهفا للوصول إلى غاية الطريق أو أكثر يقينا ومعرفة بما سيلقاه عند نهايته . إن النهر سيجف وقد جف وها هو يعبره ماشيا على قدميه ليدخل المدينة الصامتة التى خبر ما فى أهلها من كرم وخبث وعَرِف إيمانهم وصمتهم لذكر الله وجحودهم ونسيانهم للوعد والمواعيد .

ودخل بيت الذين استضافوه صامتين أول مرة حتى إذا أصبح الصباح دار فى شوارع

المدينة حتى سمع المنادى الذى يعرف ما يعرضه من شغل . فأخذ الكيس والجارية وتلثم حتى لا يعرفه التاجر وقبل منه الشغل وخرج معه على فرسين بعد أن ذهب إلى بيت من استضافوه وترك لهم دون أن يمسها أجرة الشغل التى أعطاها له التاجر . لم يمسس جانشاه هذه المرة لا المال ولا الجارية و لم ينم طول الليل وهى إلى جانبه لا تعرف ماذا به و لم أعرف أنا أيضا لماذا يرفض المحب أية سعادة وإن كانت عارضة رغم حرمانه وشقائه مادامت الحبيبة بعيدة لا تقدمها له .

وعلى قمة الجبل العالى ، بعد أن حمل الطير الكبير الفرس المذبوحة وبداخلها جانشاه وقف يطل على التاجر الجشع وهو يقول له : « ارم لى شيئا من الحجارة التى حواليك حتى أدلك على الطريق التى تنزل منها فقال جانشاه :

ــ أنت الذى فعلت بى كيت وكيت من مدة خمس سنين وقد قاسيت جوعا وعطشا وحصل لى تعب عظيم وشر كثير وها أنت عدت بى إلى هذا المكان وأردت هلاكى والله لا أرمى لك شيئا ..

ثم إنه سار وقصد الطريق التى توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور ... »

الحق معك ياجانشاه عندما لا ترمى للرجل شيئا من جواهر الجبل الذى طوح بك الطريق إليه . ولكن قل لى هل حصل لك شر كثير وهل ما حصل لك كان شرا أم نعمة تشكر عليها الرجل . فلولا لؤمه لما رأيت ولما دخلت إلى المقصورة التى أنارتها السيدة شمسة .

وازدادت الرجفة فى بدن جانشاه وهو يدخل المقصورة « وصار فى بكاء وأنين ناشىء عن قلب حزين و لم يزل يبكى حتى أغمى عليه ثم بعد ساعة أفاق وجعل ينظر تارة إلى السماء وتارة إلى البحيرة وتارة إلى البر وقلبه يرتجف من شدة العشق » وكأنما قد عاد تماما إلى انتظار السنه الأولى بعد أن رآها أول مرة وكأنما لم يمض الزمن و لم يحدث كل ما حدث بينهما وكان زواجه بها حلما لم يتم .

قال له الشيخ نصر انتظر حتى يأتى موعد الطيور فتسألها عن تلك القلعة التى أصبحت ياجانشاه تردد اسمها دون أن تعرف له معنى أو مكانا إلا أنها المكان الذى دعتك إليه وهى تتركك وكأنها تلقى لك بلغز عليك أن تحله ولا قدرة لك على ذلك : إذا كنت تحبنى كما أحبك فتعال عندى إلى قلعة جوهر تكنى ..

سمع صوتها يتردد حوله فى المقصورة وقد حان لقاء الطيور فخرج إلى الشيخ نصر وشهد مقابلته لهم وهو يسألهم واحدا بعد الآخر عن قلعة جوهرة تكنى وكل منهم يقول : ما سمعت بهذه القلعة طول عمرى ..

وأراد الشيخ نصر أن يثنيه عن عزمه وأن ينصحه بالسلامة فقال له دعنى أوصى واحدا من الطيور ليحملك إلى بلادك كابل . وتذكر جانشاه رحلته على ظهرها إلى بلاده فلم يقبل الطريق الذى عرضه عليه الشيخ نصر واخترع لنفسه طريقا آخر لا أدرى كيف اختاره إلا بمحض الإصرار على تكرار السؤال . إنك ياشيخ نصر ملك الطيور فلم لا ترسلنى إلى ملك الوحوش حتى أواصل السؤال والتقصى من طير الجو ووحش البر عن قلعتى المخفية وراء الكينونة التى لا تنتهى . إننى ياشيخ نصر أحب وأعشق وليس هناك نهاية لطريق المحب إلا الموت ولا حتى به ..

وتذكرت أوراق أبى وأنا أرى جانشاه عند ملك الوحوش ينتظر حتى « أقبلت الوحوش فسألهم عن قلعة جوهر تكنى فقالوا جميعا ما نعرف هذه القلعة » وسمعت مليكتى العارفة تقول لى :

ــ « اعلم ياحاسب أن جانشاه بكى وتأسف على عدم ذهابه مع الطير الذى أتى به من عند الشيخ نصر .. »

فهل تأسفت فعلا ياجانشاه وحننت إلى أهلك وبلدك كما أحن أنا الآن ، أم أنها مجرد لحظة من لحظات الضعف فى الروح يميل بها المرء إلى الموت والخلاص من الانتظار أمام ما يلقاه من مشقة . ما أكثر الطرق التى تربط بين الحب والموت وما أغرب السبل التى تؤدى من الواحد منهما إلى الآخر .

لم يتجه جانشاه أبدا إلى الطريق الذى يوصله إلى كابل بل ظل يتضرع إلى ملك الوحوش حتى أوصله بخطاب إلى أخ له « لا يوجد أكبر منه هو والشيخ نصر فى الجان » .

ويمضى جانشاه يحاول أن يفتح مغاليق الكينونة ليصل إلى قلعته الحصينة وراء الغيب وأخذ ينتقل من ملك إلى عالم ومن سلطة قادرة إلى سلطة أقدر ومن معرفة متقاصرة إلى معرفة أكثر قصورا ونقصا والطريق الطويل لا ينتهى .

قال له الأخ الأكبر ما أظن السيد سليمان فى عمره سمع بها ولا رآها . وقال له الراهب القابع فى الدير يتعبد :

ــ « والله ياولدى عمرى ما سمعت بهذه القلعة ولا رأيت من سمع بها أو رآها مع أننى كنت موجودا على عهد نوح وحكمت من عهد نوح إلى زمن السيد سليمان على الوحوش والطيور والجن ... »

كلهم يملكون ويحكمون ولكن معرفتهم وقدرتهم لا تحيط بجزء محدود مهما اتسع من الكينونة الفسيحة التى تختفى وراءها السيدة شمسة .

ويكاد الطريق أن ينسد أمام جانشاه حتى تأتيه ذكرى غامضة من طفولة بعيدة قديمة يلقيها طير أسود لا اسم له ولا أصل فيسأله الراهب عن القلعة فيقول له الطير :

ـــ أيها الراهب إننا كنا ساكنين خلف قبل قاف بجبل البلور فى بر عظيم وكنت صغيرا وأبى وأمى يسرحان فى كل يوم يجيئان برزقنا فاتفق أنهما سرحا يوما من الأيام وغابا سبعة أيام فاشتد علينا الجوع ثم أتيا فى اليوم الثامن وهما يبكيان فقلنا لهما ما سبب غيابكما قالا إنه خرج علينا مارد فخطفنا وذهب بنا إلى قلعة جوهر تكنى وأوصلنا إلى الملك شهلان الذى أراد قتلنا فقلنا له إن وراءنا فراخا صغارا فأعتقنا من القتل ولو كان أبى وأمى على قيد الحياة لكانا أخبراكما عن القلعة .. »

لقد أراد الملك شهلان أن يقتل الطائرين بعد أن عرفا بمكان قلعته ولكن شفقته على الفراخ الصغار حفظت الذكرى الغامضة لجانشاه الذى ضاع منه الطريق و لم يستطع أحد أن يدله عليه . وهل هناك من يدلك على الطريق ياجانشاه أو هل هناك طريق حقا إلى قلعة جوهر تكنى .

تضرع جانشاه للطير الأسود أن يحمله إلى « نحو وكرهم القديم » ، أو أقرب ما يكون للذكرى الغائرة البعيدة . وعندما أوصله إلى هناك ، إلى هذا القرب الغامض غير المحدود قال له « ما بقيت أعرف وراء هذا المكان أرضا » . وهناك حيث لا أرض وراء الأرض وحيث لاصفة للمكان إلا أنه نحو الوكر القديم « غلب على جانشاه النوم » .

أنت الآن ياجانشاه على مقربة وفى نومك تقطع بقية الطريق إذا كان للطريق بقية أو عليك وقد نفذت بحبك إلى وراء الكينونة التى لا يعرفها البشر أن تنتظر فى نومك ما لا يعرفه إلا البشر .. قدرة الحب على صناعة المستحيل وقدرة الحبيبة على أن تعرف أين أنت وأين تنام فى انتظارها وقد أكملت سياحتك فى الحب أو تكاد .

وقالت لى مليكتى :

ـــ اعلم ياحاسب أن « السيدة شمسة لما راحت عند أهلها أخبرتهم بما جرى لها مع جانشاه وحكت لهم حكاياته وأعلمتهم أنه ساح فى الأرض ورأى العجائب وعرفتهم بمحبته لها ومحبتها له وبما وقع بينهما فلما سمع أبوها وأمها ذلك الكلام قالا لها ما يحل لك من الله أن تفعلى معه هذا الأمر ..

وأرسل الملك أعوانه ومردته يبحثون عن أى إنسى محب يقارب القلعة .

وهل يقترب من القلعة إلا محب وهل يقطع هذا الطريق الضائع إلا إنسى .. قم ياجانشاه

من نومك فأعوان الملك يحملونك بقية الطريق إلى السيدة شمسة وهناك تقام الأفراح والزينات ويعملون عرسا عظيما للسيدة شمسة ثم « أدخلوا جانشاه عليها واستمر معها مدة سنتين فى ألذ عيش وأهناه »

وعندما رأيت الزينات تملأ القلعة وجانشاه يدخل على السيدة شمسة قلت فى نفسى :

ـــ ما أسعدك ياجانشاه .

وإذا بمليكتى العارفة ترفع أهدابها من جديد وتقول لى وكأن صوتها صدى لصوت جانشاه الذى سمعته وأنا أحاوره :

ـــ لا تحسبن أحدا سعيدا حتى يموت .

□ □ □

الفصل الثالث عشر

نبع الحب والكوكب الغارق
فى الماء

□□ أرسلتنى الملكة لأنام فى ثوبى الجديد وتحت رأسى وسادتى الناعمة . ويبدو أن كوب العسل الصغير وشمّات المسك والبهار قد أراحت جسدى وروحى وهيأتها لنوم عميق . ووضعتُ رأسى على الوسادة وأنا أطارد خيالات جميلة كأنها غزلان رابعة من عيش السيدة شمسة وجانشاه التى قالت الملكة إنه كان ألذ عيش وأهناه . وما أسهل أن يتخيل المرء صور السعادة وأشكالها مع مثل جمال السيدة شمسة وغرام أخى جانشاه . لقد اكتفيت بوصف الملكة لعيشهما ووجدت أن عدم اطلاعى على تفاصيله ، التى شاءت الملكة أن تحجبها ، لم يعطل خيالى وتصوراتى ، بل أظنه قد أطلقها وجعلها أكثر حرية واندفاعا فى رسم لحظاتهما معا . ويبدو لى أن الإنسان هو دائما أكثر قدرة على تصور السعادة من صناعتها .

وعلى الرغم من كل ما تخيلت وقلبت من صور لهما ولحياتهما معا فإننى أحس بقدر كبير من الحرج يجعلنى ـــ أنا أيضا ـــ لا أسجلها ولا أعيدها احتراما لحرمة أخى وخصوصياته . فهناك منطقة فى روحه ـــ مهما كنته ـــ تظل دائما خصوصيته التى لا تفض وكأنها كينونته الأصيلة القائمة . وإذا كان الألم والعذاب والشك تطلق جميعها فى النفس ما لا تعرفه النفس عن نفسها ، فإن السعادة ترد الإنسان إلى جوهر الوجود الواحد ، وتحيل كينونته إلى هذا السر الذى لا يفضه أى سؤال ، ولا تمسه إلا الإشارة وتقرير أنه هو هو ..

وساءلت نفسى ، هل عرفت أنا السعادة وهل مرت علىّ فى أى وقت من أوقات حياتى لحظات منها . أنا لا أذكر من ذلك شيئا اللهم إلا هنيهات سريعة عاجلة كنت أحسها فى بدنى وروحى عندما تديم الملكة النظر إلىّ فى عيونى حتى أعرف بدنى وقد صار روحا مكتملة متحققة . إنها لحظات قد سجلتها فيما أعدت من حكايتى ولكننى لم أتوقف عندها ولم أعرفها تماما فقد كانت ، بفجأتها وسرعتها ، مستعصية على الإدراك الكامل . وها أنا الآن لا أستطيع حتى أن أستعيدها بل وأرى أن محاولتى لذلك تطارد صور السعادة وأشكالها التى حسبتها لجانشاه .

وتردد فى فكرى وأنا أستعيد يقظتى صوت الملكة وكلماتها وهى تقول : لا تحسبن .. وتلفتت روحى تحاول أن تجد فى السنتين اللتين أمضاهما جانشاه مع السيدة شمسة فى القلعة ما يومىء أو يفصح عن نذر النهاية لألذ عيش وأهناه والتى كانت تتردد واضحة عالية فى كلمات الملكة الأخيرة . وهل يمكن للسعادة أن تتصل وأن تستديم وكأنها رؤية أم أنها

بحكم وقوعها فى الزمن معرضة لما يتعرض له الوجود ومظاهر الكينونة من تغير وتحول وتبدل فى الصور والأشكال . لقد علمت الآن أن النبع الذى يروى السعادة ويجعلها تزهر وتنير هو الحب فهل يظل نبع الحب سيالا جاريا دون توقف بلا جفاف أو أى انحسار .. وهل فى النفس نبع واحد للحب أم ينابيع متعددة مختلفة السيولة والتدفق والمزاج ؟!

ولاشك أن هذا أمر عويص يصعب علىّ أن أصل فيه إلى حل أو رأى . فعندما أسترجع ما أعلم عن الحب وما علمته عنه فى حياتى أجده أنواعا وأشتاتا يتعذر معها الوصول إلى ما يجمعها ويوحدها . فقد سألتنى الملكة هل أحبها وأجبت بما أعلم . وقبلها سألنى بلوقيا وقلت له إننى أحبه وأحب جانشاه وقد عاينت ما استطعت فهمه والانفعال به من حبيهما . وقلت لبلوقيا إننى أيضا أحب نفسى وقالت لى الملكة إنك لا تحب إلا نفسك . فأين أنا من كل هذا وأين هذا النبع الواحد السيال من الحب الذى تزهر معه السعادة ؟!

إن كلمة جانشاه التى كررتها الملكة : « لا تحسبن أحدا سعيدا حتى يموت » تثقل الآن فكرى وتجعلنى أتساءل عن معناها وكيف جاءت لجانشاه أو خطرت له وإلى ماذا يشير بها . فقالت لى الملكة وكانت تتابع روحى منذ يقظتها :

ـــ هى من حوارات اليونان القدامى تعلمها جانشاه وهو صغير ولم يدرك معناها الواضح البسيط إلا بعد أن شاخ واستعصى عليه الموت الذى هو كل ما يتمناه ..

ـــ فما الذى يربط بين الحب والموت ؟ .

ـــ يقعان فى الزمن ولا يمتزجان إلا فى الكينونة .

ـــ فأين ومتى يمتزجان ؟ .

ـــ فى الكينونة عندما يحين المكتوب .

ـــ فماذا يصيران إذا امتزجا ؟ .

ـــ سياحة وراء الكينونة متصلة لا تنتهى .

وصمت أسأل نفسى عن قدرتى على الحب وعلى الموت وعن حقى ونصيبى من السياحة وراء الكينونة فلم أهتدِ إلا إلى بيتى فى مصر الذى فيه أمى وزوجتى ولم أجد فى روحى إلا شعورا غامضا بالحنين يتدفق سيالا ليدفعنى إليهما ويجعلنى أتصور وجهيهما وقد جعلتهما الدموع أكثر جمالا وانتظارا ..

وقلت للملكة وكأنما أنتشل نفسى من تيار لا أستطيع أن أقاومه وأجمع فى نفسى عزما على الخروج :

ـــ أريد أن أروح إلى بلادى ..

فنظرت إلى الملكة طويلا حتى كدت أفقد محاولتى وعزمى ورفعت أهدابها الطويلة كأنها تدعونى لأنظر ماذا أرى وقالت لى بصوتها العسلى :

ـــ اعلم يا حاسب أن قولك هذا هو ما قاله جانشاه للسيدة شمسة بعد سنتين من زواجهما فى قلعة جوهر تكنى وقال لها « إن أباك قد وعدنا بالذهاب إلى بلادى وأن نقعد هناك سنة وهنا سنة .

فقالت : سمعا وطاعة .

ولما أمسى المساء دخلت على أبيها وذكرت له ما قاله جانشاه .

فقال : سمعا وطاعة ولكن اصبرى إلى أول الشهر حتى نجهز الأعوان .

فأخبرت جانشاه بما قال وصبرا المدة التى عينها . وبعد ذلك أذن شهلان للأعوان أن يخرجوا فى خدمتهما حتى يوصلاهما إلى بلاد جانشاه . وقد جهز لهما تختا عظيما من الذهب مرصعا بالدر فوقه خيمة من الحرير منقوشة بسائر الألوان يحار فى حسنها الناظر .

فطلع جانشاه هو والسيدة شمسة فوق ذلك التخت ثم انتخب من الأعوان أربعة ليحملوا ذلك التخت ثم إنهم ساروا من ذلك الوقت ، بعد أن طلعوا جميعا ، والأعوان حملته وطارت بين السماء والأرض ويسيرون كل يوم مسيرة ثلاثين شهرا و لم يزالوا سائرين مدة عشرة أيام وكان فى الأعوان عون يعرف بلاد كابل فلما رآها أمرهم أن ينزلوا على المدينة فنزلوا ومعهم جانشاه والسيدة شمسة وكان الملك طيغموس قد انهزم من الأعداء وهرب فى مدينته وصار فى حصر وضيق عليه الملك كفيد ... »

كان جانشاه صامتا طيلة الرحلة الطويلة ، على وجهه الجميل شبه حزن لا أعرف هل مصدره تعب الطريق أم فكر عميق لم يفصح عنه . أما السيدة شمسة فكانت إلى جانبه منيرة كالكوكب الطالع تبتسم له بين الحين والآخر لتؤاكله أو تؤكله مما يحمله لهما الأعوان على طول الطريق . وعندما يجن الليل وهما فى السماء تأخذ رأسه على كتفها وتطلب منه أن ينام . فإذا أيقظه النهار قبلها بين عينيها وجلس صامتا من جديد ترهقه الأفكار وتوقع ما سيراه أو سيجده عند أبيه .

وسمعت السيدة شمسة تقول له يوم الوصول وهم يستعدون للنزول من التخت والطلوع إلى أبيه فى القصر :

ـــ لا تشغل بالك يا حبيبى بهذه الحرب فأعوانى سيتكلفون بها ويحملون عن أبيك مشقتها .. انظر إلىّ وقل لى أنك تحبنى وفكر فى سعادتنا ..

ورأيت جانشاه يبتسم لها وهو مازال مشغول البال ويهبط عاديا إلى أبيه الذى « لما رأى ابنه كاد أن يموت من شدة الفرح » ..

وهبطت السيدة شمسة متثاقلة حتى سبقها جانشاه واختفى فى القصر بين أحضان أبيه وراحت هى تصدر أوامر سريعة قصيرة للأعوان وقد أدركتُ سريعا حال المدينة وحال الملك . ثم تمشت إلى القصر ودخلته وصعدت إلى سطحه العالى حيث طارت من قبل ، وأمرت أعوانها أن يستدعوا لها والد جانشاه لينظر معها إلى أعوانها وهم يقاتلون العدو ويقيدون الملك كفيد ويحملونه فى السلاسل والأغلال إلى حيث عرش الملك طيغموس ليلقوه عند أقدامه متضرعا . وتشفعت فيه السيدة شمسة وقالت لوالد جانشاه :

ـــ « أطلقه ليرجع إلى بلاده وإن حصل منه شر أمرت أحد الأعوان أن يخطفه ويأتيك به .

فقال له الملك :

ـــ إن الملكة قد تشفعت فيك فاذهب إلى بلادك وإن عدت لما كنت عليه فإنها ترسل عونا من الأعوان فيأتى بك . فسار الملك كفيد إلى بلاده وهو فى أسوأ حال ... »

هكذا عدت إذن يا جانشاه إلى الوكر القديم وأطلقك الملك شهلان وقد منحك فى السيدة شمسة نبع الحب الذى لا يغيض وقدرة السلطان الذى لا يحد . وها أنت سعيد لا مزيد لسعادتك تتقلب فى أحضانها فى « ألذ عيش وأهناه .. » فكيف وصلت إلى القبرين المبنيين وإلى بكائك وصمتك اللذين لا ينتهيان ..

وتجمع فى نفسى السؤال الذى لم أعرف له جوابا منذ التقيت بجانشاه وسمعت حكايته وأصبحت جزءا من حياتى لا أستطيع أن أخلص منه ، والتفت إلى الملكة وقلت لها فى حدة من نفاد الصبر :

ـــ كيف التقيت بأخى وحبيبى جانشاه وماذا فعلت به ؟

ـــ المكتوب .. نفذته معه كما نفذته مع بلوقيا ومعك .

ـــ وما هو المكتوب ؟ .

ـــ الواقع وما سيقع فى قادم الأيام علينا أجمعين .

وفزعت من هذا الجمع الذى تستخدمه الملكة وتساءلت عما يجمعنا جميعا نحن الأربعة فأسألها :

ـــ وما الذى وقع لجانشاه ؟ .

فقالت لى فى هدوء لم أعرفه منها من قبل وتقطعت كلماتها التى عرفتها سيالة متواصلة وقالت لى :

ـــ اعلم يا حاسب أنك صرت مثلى عالما بالحكاية والمكتوب ، فانظر فى عيونى إذا أردت لترى ما وقع وستظل ترى حتى يحين المكتوب فيغمضان عليك ، وعلى يديك ..

وتزايد فزعى وأحسست أنها وكأنها تهددنى بما فى نفسى من عجز بدونها . وتلهفت مسرعا أحملق فى عيونها لأرى وأسمع من جديد ما لم أكن أعلم ومازلت إلى الآن لا أفهم جماله وكماله وما يحدثه فى نفسى من فزع مستديم لا أظنه يغادرنى أبدا .

رأيت جانشاه والسيدة شمسة يطيران بتختهما المهيب إلى قلعة جوهر تكنى وتظل تلاعبه هناك وتعاطيه ما لم يعط لبنى آدم من قبل ورأيتهما يعودان بعد سنة إلى أرض كابل ليزورا أهله ثم رأيتهما يستعدان للطيران من جديد إلى القلعة النائية حتى أكملا لزواجهما سبع سنوات وكان جانشاه قد بلغ من السعادة منتهاها وأشرق وجهه بنور الحب حتى كأنه قمر منير أما هى فقد ازدادت حسنا وجمالا وتوهج جسمها بالحب والغرام الذى يسكبه جانشاه عليها فلا تكاد تعرف أيهما الشمس وأيهما القمر ..

وفى السنة السابعة لزواجهما والتى عزم فيها جانشاه على أن يمضياها مع أهلها ركبا التخت وطارا حتى وصلا إلى الجزيرة التى فيها جانشاه الآن . ورأت السيدة شمسة وهما فى الجو أن فى الجزيرة نهرا صافيا هادئا فقالت لحبيبها :

ـــ فلننزل هنا لنتفرج ولنأكل ولنشرب وأغتسل .

ونزلا من التخت حبيبين متضامين يلفها بذراعه وتلفه بذراعها وسارا يتبادلان القبل والأحضان كل سبع خطوات وهما يذكران أعوام زواجهما . وتبعتهما منتشيا بما يشعانه فى الدنيا من سعادة حتى وصلا إلى مرج فيه دغل من الأعشاب الكثيرة كأنما ليختفيا فيه عن الأنظار ولم يكن هناك إلا عيونى وأنا أرى على الأرض بين أعشاب المرج ملكة الحيات وكأنها جاءت مثلى لترقبهما أو كأنما جاءت مثلهما للتفرج على المرج ولكنها انسربت تحرك الأعشاب ووصيفتها تحملها على طبقها الذهبى حتى اختفت عن عينى وسمعت صوت القبلات بين جانشاه والسيدة شمسة ، وضحكاتهما ، وكلمات الغرام والحب تنثال من فم جانشاه ومن ابتسامة وعيون السيدة شمسة . ورأيتها ترقد بين الأعشاب وتضمه إلى صدرها ليصبحا جسدا واحدا دون أن تنتهى قبلاتهما .

ووقف جانشاه وهى مازالت راقدة مغمضة العينين مفتوحة الفم وراح يرقبها وهو يقول :

ــ ما أجملك يا حبيبتى .. إنك دائما وكأنك دائما بكر لم يمسسك بشر ولا حتى أنا ..
فقالت له شمسة وهى تستر ما تعرى من جسمها وكأنها تعرضه عليه ولا تحجبه :
ــ أتمنى من الله ولا يصعب على الله أن أظل بكرا لك وأن أبقى دائما جميلتك التى تحب .
فقال جانشاه وهو يحتضنها من جديد :
ــ أتمنى من الله أن أعيش للأبد لأظل دائما أحبك كما أحب الآن .

واحتضنها من جديد وسارا بين الأعشاب يتبادلان القبل كل سبع خطوات والأعشاب حولهما تنطق بفوائدها وكأنها مسها شىء من سعادتهما أو من مسار ملكة الحيات .

وسمعت السيدة شمسة العشب الذى يقول أنا عشب المرأة البكر دائما ، كل من أكلتنى لا تحبل ولا تلد ويتجدد فرجها بعد كل اجتماع بمن تحب ، وقال العشب الآخر أنا كل من أكلنى لا يموت حتى النفخة الأولى ..

وعندما سمع جانشاه والسيدة شمسة الأعشاب تنطق بفوائدها وكأنها قد سمعت دعاءهما لله ظلا يضحكان ويتبادلان القبل وهما يقطعان العشب ، كل منهما العشب الذى أراد ، ويمضغانه مبتعدين عن بعضهما وكأنهما يتندران الواحد منهما مع الآخر أو يتبادلان القبل عن بعد ..

وظل جانشاه والسيدة شمسة فى ذراعه يسيران وهما يضحكان حتى عادا إلى النهر وقد سرى العشب الكونى فى أبدانهما الأرضية . فلما بلغا النهر قالت السيدة شمسة لجانشاه :
ــ تعال إلىّ ياحبيبى قبل أن أنزل النهر لأغتسل ..

واحتضنها جانشاه وركب فوقها وأزال بكارتها من جديد ، ثم قامت من تحته ونزعت ثيابها وجمعت جواريها ففعلن مثلها ونزلن فى النهر وسبحن فيه . وبينما جانشاه يتمشى على شاطىء النهر وقد ترك الجوارى يلعبن فيه مع السيدة شمسة « وإذا بفرس من دواب النهر ضربها فى رجلها دون الجوارى فصرخت ووقعت ميتة من وقتها وساعتها ... »

وعندما صرخت أنا ، وأنا أرى السيدة شمسة مثل الكوكب الغارق فى الماء قالت لى الملكة :

ــ اعلم يا حاسب أن الجوارى طلعن من النهر هاربات إلى الخيمة من ذلك الفرس فوجدن جانشاه قد شاهدها وهى تغرق ميتة فى النهر وراح ينوح ويبكى حتى وقع مغشيا عليه . فعندما أفاق بعد أن رشت الجوارى عليه من ماء النهر أمر الأعوان أن يأخذوا التخت ويروحوا إلى أهلها ويعلموهم بما جرى لها ، فراحوا إلى أهلها وأعلموهم بما جرى . فلم

يغب أهلها حتى أتوا هذا المكان فغسلوها وكفنوها وفى هذا المكان دفنوها وطلبوا من جانشاه أن يأخذوه معهم إلى بلادهم فقال لأبيها :

ـــ أريد أن تحفر لى حفرة بجانب قبرها واجعل تلك الحفرة قبرا لعلّى إذا مت أدفن فيها بجانبها ..

وصمتت الملكة صمتا طويلا وأنا أرى جانشاه جالسا بين القبرين وقد اكتمل الغروب الذى رأيته فيه طول حكايته ولفه الظلام حتى لم أعد أرى إلا شبحى القبرين المبنيين يعكسان ظلالا سوداء طويلة على الأفق الذى ازدادت ظلمته أمام عينى وكاد أن ينسد وقمت مفزوعا باكيا أصرخ على الملكة .

ـــ إنى أريد الآن الذهاب إلى بلادى .

الفصل الرابع عشر

وداع الملكة ووجه الأرض

□□ عندما قلت للملكة إنى أريد الآن الذهاب إلى بلادى ورحت أكررها لها ولنفسى كنت أسمع فى داخلى يتردد أيضا ، وكأنما يصاحب عبارتى ، عبارة جانشاه الغامضة : لا تحسبن .. وكأنما انعكست الظلمة التى رأيت فيها جانشاه يغمض على عينى ولا أتبين فيها إلا جوانب القبرين المبنيين ، وتسللت هذه الظلمة حتى لفت عبارتى أنا فأصبحت هى الأخرى غامضة تستعصى معانيها علىّ كلما كررتها . فما معنى أننى أريد وأنا غير قادر على الفعل غير مستطيعه إلا بغيرى وبإذن لا أعرف متى يأتى . وما معنى الآن الذى أتحدث عنه ، وهل ما أعنيه بالآن هو كل حكايتى التى أردت إعادتها لأفهم معناها أو لأعرفه على الأقل .

هل ما أريده هو أن أنفض عن نفسى هذه الحكاية التى هى كل ما أعرفه الآن من آن . وماذا يعنى الذهاب إلى بلادى وأين كنت إذن ؟ وما هذا الذى أنا أريد الذهاب إليه الآن فى بلادى ؟

ومع كل هذا الغموض الذى دفعتنى إليه الملكة بصمتها وبعيونها المغمضة رحت أكرر عبارتى وكأننى أذكر الله أو أستعيذ به مما ركبنى من شياطين الإنس والجان أو كأننى عدت أحمى نفسى من الطيور التى تريد أن تأكل كبدى وأنا حائر لا أستطيع أن أردها ولا أعرف كيف أفعل هذا .

وفتحت الملكة عيونها فلم أر فيها إلا نظرة صافية من التعجب والاندهاش وكأنها تريد أن تنفذ فىّ أنا إلى شىء تريد أن تعلمه أو تراه وقالت لى ..

ـــ ما أعجب بنى آدم ..

وقلت متعجبا أنا الآخر :

ـــ وما العجب فى أنى أريد الذهاب إلى بلادى ؟!

ـــ اعتناق المكتوب ..

ـــ ماذا تعنين ؟ .

وزاد الغموض الذى يلف كلماتى وكلماتها وأدركت أننا نتحاور فى آن فريد ليس من الزمان ولا المكان وهى تقول لى :

ـــ إنهم يندفعون للمكتوب يريدون اعتناقه وكأنه حبيبة وكأنما هذا فطرة فيهم كفطرة الحب والتناسل !!

فقلت غير فاهم ماذا تعنى :

ـــ ليس لى أولاد ولم يرزقنى الله نسلا .

ـــ إلى من تريد الذهاب إذن ؟

ـــ إلى أمى وزوجتى .

ـــ فهل قصرت أنا هنا فى حقك ؟

وتحسست ثوبى الجديد وجسمى من تحته وشممت المسك المعلق فى عنقى وشعرت بشىء من الجوع ولكننى لم أطلب الطعام بل قلت مرة أخرى وكأنما رغما عنى :

ـــ أنا أريد الذهاب الآن إلى بلادى .

ـــ ألا تريد قبل أن تذهب ولا حتى أن تودعنى ؟

ـــ كيف أودعك ؟

ـــ تحكى لى حكايتك أو تسألنى عن حكايتى .

ـــ فنعيد الحكاية ؟!

ـــ أليس هذا ما كنت تريد ؟

ـــ ولكنه ليس ما أريد الآن !.

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ أريد الآن الذهاب إلى بلادى .

ـــ ما أعجب بنى آدم ..

ـــ وما العجب فيما أريد ؟

ـــ تتغير إراداتهم بأسرع ما يتغير النهر الجارى ..

ـــ ألا تتغير مخلوقات الله جميعا ؟

ـــ ليس كما يتغير البشر .. فجميع المخلوقات يجرى عليها الزمن .. أما ابن آدم فإنه يغيره بإرادته التى تتغير ويحسب نفسه قادرا على حسابه .

ـــ وهل تغيرت أنا ؟

ـــ سل نفسك .

ـــ ولكنى أسألك أنت .

ـــ لقد تغيرت حتى لا يكاد يعرفك أحد .

ـــ حتى أمى وزوجتى ؟

ـــ ولا هما ..

ـــ ولا حتى أنت ؟

ـــ أنا أحببتك وأنا أشهدك تتغير .

ــ وكيف تغيرت ؟

ــ صرت حاسب كريم الدين .

ــ وماذا كنت إذن ؟

ــ ابن أبيك الذى مات .

ــ وماذا أفعل بنفسى الآن ؟

ــ ما تريد .

ــ أريد الذهاب إلى بلادى .

ــ دون أن تودعنى ؟

وصعدت إلى عيونى دموع من مكان سحيق فى بدنى وأحسست أن قلبى يصعد معها إلى فمى وأنا أنتفض قائما أريد أن أندفع إليها لأعتنقها . ومددت ذراعى ــ وأصابع يدى ــ مفتوحتين أريد أن أضمها فلم أمسك إلا بوجهها واستراحت يدى على وجنتيها الهابطتين من عظمة الوجنة حتى الفم يأسران يدى بين عيونها وشفتيها . أحسست كأن نورا خارقا ينفذ إلى بدنى كله وكأنه برق متردد لا ينتهى فأنحنى بجسمى لأقبل العينين اليمنى أولا فاليسرى ثم أهبط إلى الشفتين وأضع شفتىّ عليهما وأظل عليهما فى قبلة لا نهاية لحلاوة طعمها وطولها . وظللت هكذا أمدا لا أعرف أوله أو آخره وأنا أحس الدنيا من حولى تظلم فلا أكاد أرى إلا عينيها المضيئتين وشفتيها تحت شفتىّ يسرى منهما فى بدنى نهر جار من السعادة والعشق لا أظنه موجودا على الأرض أو فى السماء . ومازلت على هذا الحال حتى أصبحت أنا الآخر وجها لا حجم له ولم أعد أشعر أو أعرف فى بدنى إلا عينىّ وشفتىّ اللتين لا يستطيعان أو يعرفان كيف ينفصلان عنها ..

وهمست لى سرا :

ــ ياحبيبى .. نم الآن .. واذهب إلىّ ..

ووجدتنى نائما ممدودا على فراش كأنه من حرير معطر ، عاريا كما ولدتنى أمى ، وقد أظلمت الدنيا تماما فلا أرى شيئا حتى العينين ولكننى أحس وأشم على بدنى العارى امتلاء البدن الكامل يلفنى بساقين عبلتين ويغطينى بشعر كالليل المنسدل ، ويدى تجوس متحسسة كل أطراف البدن ، شفتاى تنتقلان بين الشفتين وما تحتها حتى حلمتى النهدين ، وأصابعى تتحسس أرض البطن لتهتدى وكأنها فى سياحة لا تنتهى إلى زر الميلاد وبيت الرجل ..

وهمست وأنا أشعر بدفء البدن يؤجج فى بدنى جذوة لا تنطفىء :

ــ من أنت ؟

ـــ اذهب ياحاسب فى طريقك .. تكتمل حكايتك ..

وظل بدنى يرتجف وأنا أسلك هذا الطريق المفتوح وكأننى أعرفه ليوصلنى إلى كل ما هو كائن ولأعلم فيه كل ما هو موجود ..

وعندما توقفت رجفتى ووجدت نفسى وحيدا على الأرض تحت رأسى وسادتى بدأت أتحسس نفسى لأجدنى عاريا كما ولدتنى أمى فقلت لنفسى هامسا :

ـــ هل ولدت الآن ياحاسب أم أنك تموت ؟

ونظرت إلى أعلى فوجدت عينى تريان السماء والنجوم وتكتشفان مسارات الكواكب والشهب الساقطة وأتبين بأذنى أنغاما لا تنتهى وأحس روحى تسبح فى كون فسيح كلما جسته ازداد اتساعا وانفتاحا للنظر . وهبطت بعينى فوجدتنى أعرف ما فى البحار من نبات وحيوان وأخرج من الماء إلى الأرض لأرى الجبال والوديان وكل وحوش البر وكل ما على الأرض وما تحتها من معادن ومخلوقات . وخفت أن أتحرك أو أنطق فأفقد شيئا مما أرى فظللت صامتا وأنا أرى حكايتى مع الملكة تتعاقب أحداثها ومناظرها واضحة صريحة مرئية قد أصبحت كلها معانى لا تغيب ، تضىء وكأنها جواهر حول أخوىّ بلوقيا وجانشاه وكل ما جرى لهما من فرح وعذاب . وأحسست أحداث الحكاية جزءاً من ذاكرتى وتجربتى وكأنها أصبحت كل عمرى الذى لم أعرفه من قبل . وأعدت الحكاية مكتملة لنفسى كما لم أستطع أبدا وأنا أحكيها على الورق حتى وددت لو أننى أبدأ من جديد ..

وظللت فى موضعى عاريا دهرا لا أعرف مداه حتى سمعت صوت الملكة العسلى من مكانها المعهود تقول لى مبتسمة وكأنها تعابثنى :

ـــ من أنت ؟ ولماذا أنت عار هكذا ؟

فقمت أتعثر لأرتدى ثيابى وأنا لا أعرف كيف أرد إلا بأن أقول :

ـــ أنا حاسب كريم الدين

فاستمرت فى عبثها وابتسامتها تسألنى :

ـــ من أين أتيت وما شأنك وإلى أين أنت ذاهب ؟

فقلت وأنا لا أحتمل ما تذكرنى به من أسئلة الكينونة وأحسب كلماتى حسابا دقيقا عرفت من نفسى أننى أتقنه :

ـــ أتيت من لدن المليكة العارفة ، سلطانة الحيات ومليكتها ، وشأنى هو شأن كل البشر وأريد الذهاب إلى بلادى .

فقالت لى جادة عابثة وكأنها تريد أن تعيد الحكاية من أولها :

« ما يحصل لك إلا كل خير ولكن أريد منك أن تقعد عندى مدة من الزمن أحكى لك حكايتى وأخبرك بما جرى لى من عجائب .. »

وتردد صوتها فى رأسى كأنه جرس فضى أو مفتاح ذهبى يفتح مغاليق الكون ومقاصير الرؤية .. ووجدت نفسى مليئة بما علمت من عجائب فقلت لها مواصلا حسابى الدقيق لكلماتى وما تعلمت من أصول الإعادة :

ـــ لم يعد لى قعود عندك وقد تلقيت وداعك ، أما حكايتك فقد علمتها لأنها حكايتى وليس علىّ الآن إلا أن أظل أعيدها على الناس وأن أذهب إلى بلادى .

فقالت لى وقد اختفى التعابث من صوتها وانغلقت شفتاها فضاعت ابتسامتها وأغمضت عيونها وانسدلت عليها أهدابها فلم أعد أرى أو أسمع شيئا إلا المكتوب :

ـــ « إنى أخاف ياحاسب إذا وصلت إلى بلادك أن تنقض العهد وتحنث فى اليمين الذى حلفته وتدخل الحمام .. »

فتقدمت بكل ما لدى من صدق وحلفت لها يميناً آخر وثيقا أننى لن أدخل الحمام طول عمرى .

وانتظرت صمتها الذى طال حتى أمرت حية من كريمات الحيات حولها وقالت لها :

ـــ « أخرجى حاسب كريم الدين إلى وجه الأرض » .

فأخذتنى الكريمة وسارت أمامى وأنا أتبعها من مكان إلى مكان حتى أخرجتنى على وجه الأرض من سطح جب مهجور .

الفصل الخامس عشر

حسابات الحياة وسماط الأمس الكئيب

□□ عندما خرجت على وجه الأرض وتبينت على الأفق طريقى إلى مدينتى القاهرة تلفتُّ أمامى وورائى بحثا عن الكريمة التى أوصلتنى لأشكرها وأودعها ولكنها كانت قد اختفت تماما وكأنها الخضر عليه السلام .

وسرت بخطو بطىء نحو القاهرة أفكر فى نفسى ، فيما جرى لى وفيما أنا مقبل عليه . وقلت لنفسى كأنما قد أديت مسئولية أو أنجزت شيئا هاما لقد أكملت الإعادة . ولم أعرف بالضبط ماذا أعنى بهذا لأن إحساسى العميق كان بأننى قد تغيرت وقد أصبح لى عمر وحياة وأن أحدا لا يستطيع أن ينكر علىّ الآن لا الصنعة ولا الصفة وإن كنت لا أدرى ما هما أو كيف أحددهما . يبدو أن الطريق مازال طويلا على وجه الأرض وأنه مختلف تماما عما كنت وراءه . وما أغرب الحياة على وجه الأرض .

ووددت لو أننى سمعت صوت الملكة تتابع أفكارى وتنيرها أو توجهها فلم أجد فى أذنى إلا صوت الصمت الذى هو صمت الروح عندما تكتمل وحدتها وتحمل وحدها مسئولية نفسها .

وهززت بدنى كأنما لأفيق وأعلم أننى على وجه الأرض حقا وشعرت أننى قد امتلأت فى البدن وازددت قدرا من الطول وأن السنوات التى أمضيتها هناك معها قد أثقلت كتفى . ولكننى عرفت على نفسى ثوبى الحريرى الجديد ورأيت قطعة المسك الكبيرة تتدلى من عنقى وتفح بين الحين والحين بعطرها النافذ القوى فيغلب على ما بدأت أشمه من ريح القاهرة وترابها . وسألت نفسى من جديد : ماذا يفعل الناس على وجه الأرض ؟

وسمعت فى نفسى وكأنه صوتها ، وهو ليس كذلك لأنه غمغمة كغمغمة التلاوة والترتيل :

ـــ ارتكاب الإثم ، واحتمال القسر ومهانة السلطان ، والسعى الدءوب ، يتقاعس ويرتد ، نحو تحصيل المعرفة ..

وامتلأت شعورا بأهمية نفسى لما مر بها من أفكار وانطلقتْ فيها كحمامات طائرة صورٌ وخيالات مما علمت وأنا عندها . وكادت قدمى تتعثر أكثر من مرة فى أحجار الطريق فنهرت نفسى عن التفكير والحلم حتى لا أقع ورحت أحث الخطى فى الطريق إلى منزلى وكأننى لم أغب عنه إلا سحابة نهار . فقد وصلت إلى باب البيت دون أن أكون واعيا تماما لبقية الطريق « وكان ذلك آخر النهار وقت اصفرار الشمس .. » .

ويبدو أننى قد طرقت الباب فقد كان مغلقا ولم تكن أمى تغلقه من قبل وإذا « بأمى تخرج وتفتح الباب فترانى واقفا فتصيح من شدة فرحتها وتلقى نفسها على وهى تبكى حتى

سمعت زوجتى بكاها فخرجت فرأتنى وسلمت علىّ وقبلتنى وفرح بعضنا ببعض فرحاً عظيما ودخلنا .. »

« ولما استقر بنا الجلوس » قامت زوجتى متعجلة تريد أن تعد لى شيئا من الطعام وأسرعت إلى المطبخ وكأنها مرغمة أو كأنها كانت تفضل أن تظل لا ترفع عينها عنى محملقة فىَّ كما تفعل أمى تماما . وبعد أن عادت وجلست بجانب أمى ، كى أكون فى مواجهتها ، قلت وأنا أنظر إلى سماطها بأطباقه الصغيرة العميقة قد غرفت فيه مطبوخات لا أستطيع أن أميزها :

ـــ قد أكلت ولا أريد الآن طعاما .

وظلت أمى تنظر إلىّ وزوجتى تفعل مثلها وكأنما يتفحصاننى أو يتحسساننى بعيونهما ثم قالت لى :

ـــ وأين كنت يا بنى ، وما شأنك فى هذه الثياب التى أنت فيها ، وماذا تنتوى أن تفعل الآن ؟

وتذكرت وأنا أسمعها تصنع أسئلتها ، أسئلة الكينونة القديمة التى ظللت أرددها وأسمعها وأنا بعيد عن الأرض .. أين ؟ تحتها .. ! . وتحيرت كيف أرد على أسئلة الحياة التى تواجهنى بها أمى وهل من حقى وواجبى أن أقول الصدق أم أصمت ولا أجيب وأتجنب أسئلة الحياة كما تجنبت الطعام . وترددت طويلا ورحت أنظر إلى قطعة المسك المعلقة فى جيدى لأتجنب عيونها أيضا وأمسكها بين أصابع يدى اليمين أفركها وأضغط عليها وكأنما أريدها أن تغنينى أو تعفينى من الإجابة . فلما طال صمتى قالت لى أمى بصوت غاضب وكأنها تنهر طفلها الصغير :

ـــ قل لى من أين أتيت ومن الذى أعطاك الثوب الحرير وهذا المسك الكبير ؟ .

وأحسست بشىء من خوف طفولتى من صوتها وتذكرت ما عودتنى من صدق حاسم فيما تقوله لى أو أقوله لها ، ولكنى أردت أن أقلب الأمر فى ذهنى وأن أحسبه على مهل . ووجدتنى لا أنقض عهدا ولا أنكث يمينا فقلت لها فى صدق موجز وبعزم فى داخلى ألا أزيد شيئا على كلماتى المحسوبة :

ـــ كنت عند ملكة الحيات وهى التى أهدتنى الثوب والمسك .. وسكتُّ

فصاحت أمى علىّ :

ـــ عند من ؟ .. وأين ؟

فقلت بكل ما أملك من هدوء :

ــ ملكة الحيات .. تحت الأرض ..

وعندما أدركت أمى أنها لم تخطىء السمع وأننى قلت فعلا ما قلت صاحت بصوتها الصارخ الذى عرفته فى طفولتى :

ــ حاسب هل جننت ..

ثم أضافت وهى تكاد تبكى : يا خسارتى فيك يا بنى . فتراجعت بجلستى على الأريكة التى أجلس عليها وتذكرت من خشونتها الخشبية أننى لم أحمل وسادتى معى .

وأسندت ظهرى على الأريكة ومددت ساقىّ أمامى فبرز بطنى الذى امتلأ عما كنت أعهده وتصورت أن أبى الذى لم أره كان يجلس هكذا مثلى فاصطنعت صوت الشيخ الوقور وأنا أقول لها :

ــ سامحك الله يا أم حاسب .. أنا لا أقول لك إلا الصدق .

وأمسكت زوجتى بيدها وكأنها تستمد منها العون أو كأنها تريد أن تمنعها أن تقوم على قدميها لتقف أمامى :

ــ أتريدنى أن أجن ..

وتحيرت ماذا أقول لها فصمتُّ فلم تلبث أن سألتنى من جديد وكأنها تمنع تلاحق الأسئلة من فمها :

ــ وماذا كنت تفعل هناك ؟

وكررت سؤالها :

ــ ماذا كنت أفعل .. ! لا شىء .. لا ، كل شىء .. كنت أعلم وأتعلم وقد علمت كل شىء ...

فقالت أمى مستهزئة بكلامى :

ــ كل شىء .. تعلم كل شىء .. فهل تعلم كيف كنا نعيش أنا وزوجتك وكيف كنا نأكل ..

وملت بظهرى على مسند الأريكة الخلفى ومددت قدمى أقصى ما أستطيع وكأننى أستعين ببطنى البارز على تحمل سخريتها وصَمتُّ أحسب كلماتى وأنا أتذكر اليهودى الذى طوح بجانشاه على أرض الجبل الملىء بالجواهر واليواقيت وسألت نفسى كيف لم أحمل فى جيبى شيئا من كل هذه الجواهر والذهب الذى رأيت ولماذا لم تضع لى فى مخلاة ثوبى شيئا مما كان حولها . وعرفت ماذا أقول لأمى فسألتها :

ــ ماذا قال لك الحطابون ..

وكأنما رددتُها إلى أسئلة الحياة وأعفيتها مما أوشكت عليه من جنون فقالت لى ونبرة التهكم علىّ مازالت فى صوتها :

ــ « قالوا لى إن ابنك أكله ذئب فى الوادى وقد صاروا تجارا وأصحاب أملاك ودكاكين واتسعت عليهم النعمة ، وهم كل يوم يجيئونا بالأكل والشرب .. وهذا دأبهم .. » .

فسألتها أدارى حرجى منها وغيظى منهم :

ــ وفى أى ساعة يأتون كل يوم ؟

وأسرعت زوجتى تجيبنى عنها متلهفة أن تبادلنى أى كلام :

ــ يرسلون واحدا منهم كل يوم فى آخر النهار بعد أن تقفل الأسواق ويطرق الباب ثلاث طرقات فأعرف أنهم هم فأقوم لأفتح الباب فيعطينى الذى جاء منهم المونة وهو عند الباب لا يدخل ، ثم يمضى إلى حال سبيله دون كلام أو حديث .. وسوف أعد لك طعاما طازجا عندما يأتون الليلة بدلا من هذا الطعام البايت ..

وقامت تحمل سماطها الذى لم أمسه وتوقفتْ كأنما تذكرت شيئا وقالت لى بأول نبرة حنان سمعتها منذ بدأنا حديثنا :

لابد أنك متعب من السفر ، فلم لا تذهب الآن إلى الحمام فصاحبه يذكرك بالخير دائما وقد اقترب موعد وصول الحطابين حتى إذا عدت وجدت طعامك جاهزا فتأكل شيئا قبل أن تنام ..

ونظرت إلىّ نظرة غنج ودلال لا أعرف كيف تتقنها المرأة وكيف تحسب حسابها ورفعت عينى فى عينيها ورأيتهما ــ رغم ما فيهما من حنان ــ ممسوحتين باهتتين لا أرى فيهما شيئا ولا أسمع حتى ما تقول . ولكنى أحسست بوجع فى قلبى وكادت عينى تغيم بالدموع والتفتُ إلى أمى التى راحت تنظر إلىّ وتنتظر ماذا سأقول :

ــ لقد أقسمتُ يمينا مغلظة ألا أذهب إلى الحمام طول عمرى لأغتسل .. وأريد الآن أن أذهب لأنام . فهل لدى فراش معد ..

فوقفتا متحيرتين وهما يريانى أستعد للقيام وعادت زوجتى تنظر إلىّ نظرتها الحانية ورأيت كم هى غير جميلة بما خبرت من معايير . وخطرت فى رأسى مرة أخرى وكأنها طيور سارحة خيالات من غزالة جانشاه ومن قوام السيدة شمسة ومن نور الملكة وجمالها وأنا أسمع زوجتى تقول لى :

ــ إننا لم نشبع منك بعد .. وفراشك كما هو لم يمسسه أحد ، أنا كنت أنام مع عمتى وأنت غائب .. سأنفض عنه التراب وأعده ..

وأحسست بكآبة شديدة تشملني وكأنها تتحدث عن قبر ، وتثاقلت عائدا إلى جلستى التى كنت عليها فى الأريكة وخيمت علينا جميعا لحظة من الصمت وكأنما قد أمسك لسانيهما هما أيضا شيء من الكآبة التى لفتنى مع تسرب الظلمة إلى مجلسنا ، وإذا بنا نسمع جميعا الطرقات الثلاث على باب البيت .

وهبت أمي وزوجتى معا تسرعان إلى الباب وأمي تقول لى :

ــ هاهم قد جاءوا .. أتريد أن ترى واحدا منهم اليوم ..

فأسرعت أقول لها وأنا أحسب ما أقول وماذا سيقولون لى ، وأجدنى كئيبا لا أريد أن أحدث أحدا أو أن أحسب لنفسى كلاما أو فعلا . وقلت لأمي حاسما ومسرعا :

ــ لا .. لا .. ليس اليوم .. أنا أريد الآن أن أنام ..

وتكررت الطرقات الثلاث على الباب فلم تعلق أمي بشيء على ما قلت بل أسرعت ووراءها زوجتى إلى الباب لتفتحه . وسمعت صوت أمي العالى يتحدث مع الرجل الذى جاء وعرفت صوت أحد الحطابين الذين كانوا معى عند جب العسل . ولم أتبين ماذا تقول أمي بوضوح ولا ماذا يقول لها الرجل ولكننى سمعتها تكرر اسمى كاملا : حاسب ، حاسب كريم الدين .. وسمعتها تقول أكثر من مرة عبارة عند ملكة الحيات ، ملكة الحيات ، والرجل يردد نفس العبارة . وسمعت زوجتى تقول لقد عاد متعبا ونام .. نام .. وصوت الباب يقفل ويعودان إلىّ صامتتين وزوجتى تحمل خرجا صغيرا يترجرج فيه لحم طرى ملفوف وأنواع من الخضار المتهدل الباهت الخضرة وبعض أرغفة من العيش الذى لا أظنه ساخنا .

ووضعت الخرج عند قدمى وهى تسألنى :

ــ لقد ذهب الرجل .. هل أعد لك الطعام ..

ــ لا .. سأقوم لأنام .

واختفت لتنفض التراب عن الفراش كما قالت وظلت أمي تنتظر منى أن أتكلم وأنا صامت لا أعرف ما أقول . حتى إذا عادت زوجتى قمت أتحسس طريقى إلى الفراش فى الظلمة وأمي تحاول أن تضيء مصباحا ضعيفا كاد زيته أن يجف وأنا أقلب فى رأسى حديث أمي وزوجتى على الباب وأحسب ما سينتشر فى المدينة فى الصباح من كلام عنى وعن ملكة الحيات .

وفى الظلمة رحت فى سبات عميق دون أن أنطق بكلمة أخرى أو أشعر بزوجتى عندما رقدت بجوارى على الفراش الخشن .

الفصل السادس عشر

« انك أنت الوهاب » ..

□□ لم أشعر بزوجتى عندما جاءت لتنام و لم أشعر بقيامها عندما قامت فقد صحوت والضوء يتسلل من خصاص الشباك الوحيد فى الغرفة ، وبدأت حرارة النهار تشتد فتزيد الرطوبة الخانقة فى الجو وكأنما نحن فى وقت فيضان النيل . ووجدت نفسى وأنا أقوم نصف قومة غارقا فى عرق كثيف لا يجف وقد ظهرت منه بقع فى ثوبى الحريرى الذى نمت كما أنا به . وتحسست جيوبى فلم أجد بها شيئا وتذكرت أن أوراق أبى مازالت فى جلدها من الرق وأنها خَشُنت حيث حشرتها بين ثوبى وجلدى ، وأنها تسبب لى حكة مستمرة . وتذكرت أننى عندما كنت عند الملكة وعدت نفسى أن أخيطها فى ثوبى عندما أعود إلى أهلى .

وبدأت أعى أن نهار الحياة الذى يوقظنى الآن هو غير ما كنت أعرف من نهار ، وأن على أن أواجه الكثير من التفاصيل والأمور التى سوف تفرض على قسرا دون رغبة أو اختيار أو حتى وقت كاف للتفكير والحساب ، وترددت قليلا ماذا أفعل وظننت أن خير ما أفعل وأوقظ به نفسى إلى حياة النهار أن أتذكر ما كنت أفعل فى كل يوم ، عندما كنت أصحو فى هذه الغرفة فى الصباح كما أصحو الآن . ومع ذلك فما أكبر الفارق بين ما كنت أفعل وما أنتوى أن أفعله أو أقدر أن أعمله الآن .

صفقت بيدى و لم أناد باسمها وصفقت مرة ثانية بشدة أكبر فإذا بها تفتح الباب وتقف أمامى ويديها مبللة عليها آثار الصابون والماء وقد أمسكت بثوبها الطويل ترفعه قليلا عن أقدامها وكأنها كانت تخوض فى ماء وتخشى عليه من البلل .

ـــ أريد ماء وطستا لأغتسل وأتوضأ ..

فنظرت إلى بعيونها المبتسمة الباهتة وقالت :

ـــ صباح الخير .. لقد أخذت الماء الذى عندنا لأغسل لك الثوب الباق من ثيابك .. وسأحضر ما تبقى من ماء فى إبريق للوضوء ..

ـــ أريدك أن تحضرى أيضا إبرة وخيطا ..

ـــ ماذا تريد أن تخيط .. هل أخيطه لك أنا .. هل تقطع ثوبك .. ألا تنتظر حتى يجف الثوب الذى غسلته .. ماذا تريد أن تخيط .

ولست أدرى لِمَ كنت عنيفا فاقد الصبر وأنا أقول لها :

ـــ ليس هذا من شأنك ..

وكأنما أردت أن ألطف من عنفى فقلت :

ـــ هاتى الثوب المبلول فسألبسه ويجف علىّ فالجو قائظ .. والماء عندك قليل .
ـــ لم يعد السقا يحضر لنا ماء ولم أملك بعد أن أخرج لأحضر الماء من السبيل المجاور ..
ـــ إذا جف الثوب خرجت لأحضر لك الماء .. هاتى إبريق الوضوء .. والإبرة والخيط ..

وخرجت زوجتى وتركتنى وحيدا مرة أخرى فى الغرفة فقمت واقفا أنظر لنفسى فى مرآة قديمة باهتة مثل عيون زوجتى معلقة أمامى على الحائط بخيط بال . ووضعت أوراق أبى على الفراش وخلعت ثوبى الحريرى وما تحته من ملابس قديمة وقلت لنفسى أعطيها لها لتغسلها ورحت أتأمل بدنى العارى وأنا أتعجب من أن معدتى ليست مليئة ولا مثانتى أيضا وكأننى لم أعد للحياة بعد فأنا لم أطعم أو أشرب من طعامها وشرابها ..

لولا هذا العرق لما تيقنت من جسمى أننى على وجه الأرض . وفاجأتنى زوجتى داخلة .. ورأيتها متهللة ضاحكة تحمل إبريق الوضوء وطستا صغيرا وثيابا مطبقة وتضعها بسرعة على الأرض والفراش وتقترب منى تريد أن تلاعب جسمى العارى وأنا أعطيها ظهرى متطلعا فى المرآة . وأحسست يدها الباردة المنداة تمس كتفى وظهرى وتربت على مؤخرتى وهى تقول :

ـــ أوحشتنى ..

فاستدرت وقد اقشعر بدنى من مس يدها وكأن جلدى قد لفحته نار حيث مرت أصابعها ورحت أحاسب نفسى وأمسكها ما استطعت حتى لا أبدو غاضبا وقلت لها وأنا أربت بيدى على وجنتيها :

ـــ نويت الوضوء والصلاة يا امرأة .. هل أحضرت الإبرة والخيط .. وما هذه الثياب ..

ـــ تقول عمتى إنها الثياب التى كان يرتديها أبوك قبل أن يموت .. اختزنتها عندها مع ثيابها .. والإبرة والخيط فوقها ..

ـــ جزاكما الله خيرا .. اتركينى الآن .. أصلى ، وسأخرج لكما إذا فرغت من الصلاة ..

وسحبتها من يدها إلى الباب فانصاعت ليدى وخرجت وأنا أقف عاريا وراء الباب نصف المفتوح حتى إذا مضت لحال سبيلها أغلقت الباب وأدرت فيه المفتاح القديم الذى دار بصعوبة وكأنه لم يدر منذ وقت بعيد .. واستدرت وأنا عارٍ أتطلع إلى نفسى فى المرآة وأفكر ماذا أعمل بنفسى الآن وماذا على أن أفعل .

التفتُ إلى الفراش ورأيت الخيط والإبرة فوق الملابس فأمسكتهما بيدى وفردت الثياب قطعة قطعة وأنا أتعجب من ملمسها الناعم السخى وأحاول أن أتضور أبى فيها شيخا عالما جليلا يرفل فى نعمة العلم وصنعة الطب والحكمة التى كان مكتوبا أنه يعالجها .. وقلت لنفسى : أخيط أوراق أبى فى ثيابه مادمت سألبسها فلما فرغت من ذلك نظرت إلى ثوبى الحريرى المكوم على الفراش بجانبها فطويته أفضل ما أستطيع وأنا أتحسسه ، وأحس ملمسه يهدئنى ويبعث السكينة فى نفسى فسألت نفسى أين أضعه وأخفيه فلم أعرف لنفسى جوابا . فقلت أنتظر حتى يهدينى الله وتركته على الفراش وتوجهت للوضوء ، فلما فرغت بدأت أحاول ملابس أبى فوجدتها جميعها وكأنها ملابسى عرضا وطولا فتعجبت من كرم الله وفضله وقمت لأصلى وأحمده . ولما قضيت الفريضة ظللت فى موضعى متضرعا وكل حياتى الماضية حاضرة فى ذهنى ، وروحى مضطربة قلقة مما أنا مقبل عليه .

ياربى أنا عبدك الحائر البائر فهلا هديتنى ومنحتنى بركة نعمتك .

ياربى قد مسنى الناس بالسوء فى مطلع حياتى فهل كفيتنى شرهم وحميتنى مما يدبرون لى مما أعرفه ولا أعرفه .

ياربى إنك صاحب التفكير والتدبير ، أعنّى وأنِرْ طريقى ، واغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر .

امنحنى اللهم من لدنك علما أستغنى به عن الناس وامنحنى الصنعة التى كتبتها لى والصفة التى ترضى عنها إنك أنت الوهاب .

إنك أنت الوهاب ، إنك أنت الوهاب .. ياوهاب .. ياكريم .. ياغفور .. يارحيم ..

وظللت أسبح الله وأستغفره وأسترجع ما كسبت من معان وما مرَّ علىّ من تجارب الكينونة والخلق ونفوس البشر حتى كدت أنسى أين أنا تماما إلى أن أحسست بالباب المغلق ويد عنيفة تحرك مقبضه . فلما ظل مغلقا سمعت طرقات ثلاثا عالية على الباب كأنها الطرقات المتفق عليها بين أمى والحطابين .

فلما فتحت لأمى الباب ورأتنى فى ثياب أبى فكأنها نسيت ما جاءت من أجله وصاحت :

ـــ ياسبحان الله .. الخالق الناطق .. وكأنك أبوك .. لقد أفزعتنى ..

حرسك الله ياحاسب كريم الدين .. لم أكن أتصور أنها تليق بك .. دعنى أنظر إليك ..

وأحسست بالخجل من نفسى ومن لهفتها على التطلع إلىّ فقلت لها دون أن أسألها لماذا جاءت :

ـ وأين كتب أبى التى كان يرجع إليها فى صنعته ؟

ـ ياحاسب كريم الدين .. ألا تذكر .. ألم أحك لك أنها غرقت فى البحر عندما سافر .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل بدونها ؟

ـ لقد سافر وتركنى حاملا وعندما عاد مات .. وتركتنا أنت ، أنا وزوجتك ، بلا رجل ولا مال ، ويعلم الله ماذا تنوى أن تفعل بعد أن عدت .

ـ الأمر أمر الله .. ماذا تريدينى أن أفعل الآن ..

ـ جماعتك من الحطابين فى الغرفة يريدون الكلام معك ..

وردنى الخبر الذى جاءتنى به إلى واقع الحياة وحساباتها العاجلة وفوجئت لا أعرف ماذا أقول أو أنتظر وهى تستعجلنى :

ـ هيا .. إنهم ينتظرونك من وقت وهم جماعة .

فظللت أقول لنفسى الأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .. وقلت لها :

توكلنا على الله ..

وخرجت معها إليهم وكأننى أختار طريقا من طرق الكينونة لا أعرف إلى أين ينتهى وما الذى أريده من اختياره .

كانوا فعلا جماعة وإن لم أُعُدهم . ألقيت عليهم السلام فردوه مهللين واقفين وبعضهم يقول قد عاد الشيخ الكبير .. ومرحبا بك ياوجه الخير .. مرحبا بكريم الأصل كريم الدين .. يامرحبا بالوجه المنير والقلب الطيب .. ماشاء الله ماشاء الله .. حلت البركة والنعمة .. إنه والده يا أم حاسب رده المولى عليك ..

وأظنهم كانوا سبعة . وتذكرت مماليك جانشاه وكل منهم يهز يدى ويقول كلمات الترحيب ورد السلام مبتسما متهللا وكأنهم يخفون حيلة أو يحسبون علىّ الوقت والأيام .

وصمت أترقب بدء حديثهم ولكنهم صمتوا هم أيضا حتى تحرك شيخهم وتنحنح وقال :

ـ أين كنت ياحاسب ؟

فقلت وأنا أريد ألا أختار بل أنتظر وأعزم فى نفسى على أن أسمعهم دون أن أتكلم ..

ـ الله يعلم .. دعونا من هذا الآن واخبرونى .. ماذا تريدون ؟ .

ـ نحن لانريد إلا الخير بإذن الله .. اعلم ياحاسب أن السلطان مريض فى غاية المرض ووزيره يحكم البلد بيد من حديد ويحاسب الناس على مافعلوا وعلى ما لم يفعلوا .. يقلب ويفتش فى الأوراق القديمة وفى حسابات التجار ويريد أن يعرف الماضى وماجرى فيه لكل

إنسان وكأنه قد أصبح المتحكم القهار فى حاضر الناس وما يجرى عليهم فى كل أوان .. وهو ساحر وصاحب علم وسلطان ..

فلما وجدته يسترسل فى الحديث عن الوزير و لم أكن أعرف عنه شيئا قلت مستوقفا له :

ــ ومالى أنا الفقير الآن بالوزير والسلطان ..

فرد على واحد آخر منهم غير الشيخ قائلا :

ــ نحلف بالله العظيم ياحاسب كريم الدين أننا لك من الصادقين .. لقد ذاع خبر رجوعك فى المدينة وبلغ الوزير وقد نصحنا التجار أن نُقدم لنستسمحك ونرضيك قبل أن يسألك الوزير وتشكونا إليه .

فقلت غاضبا :

ــ أنا لن أشكو أحدا .. والشكوى لغير الله مذلة وكفانى ما لقيت منكم من شر وعناء ..

و لم يفت روحى المتيقظة لما يجرى فيها وما يجرى منهم ، أن تسألنى هامسة لى : وهل لقيت شرا وعناءً ياحاسب ؟ فقلت لهم مكملا :

ــ لقد أخبرتنى أمى وزوجتى ببركم وعلىّ أن أحمد الله وأن أشكركم .

فقال لى ثالث هو أصغرهم سنا وكان أقربهم لى يسابقنى ونلعب معا ونحن نحتطب :

ــ أقول لك الحق ياحاسب .. لقد اجتمعنا منذ عرفنا بخبر عودتكم من عند ملكة الحيات وظللنا طول الليلة الماضية وسحابة هذا النهار نتداول الأمر حتى اتفقنا جميعا على ما جئنا نقدمه لكم طالبين منك السماح والغفران ..

فقلت لهم حذرا متلطفا وأنا أذكر اتفاقهم على تركى وإغلاق الجب على :

ــ وعلام اتفقتم بإذن الله .. كل ما أريد منكم أن تتركونى وشأنى ..

فتدخلت أمى وكانت جالسة صامتة .

ــ لِمَ لا تسمع منهم ياحاسب ؟

فعاد الشيخ الكبير يقول :

لقد أعددنا الأوراق ووقعناها مع القاضى .. وجئنا إليك وقد ترك كل منا نصف ماله ومماليكه حلالا حرا لك على أن تعطينا ، لكل منا ، مخالصة تامة لكل ما كان علينا لك ..

« وهذا من بعض إحسانك وقد صرنا بن يديك .. »

فقامت أمى على قدميها واقفة تقول فرحة مهللة :

ـــ مبارك ياحاسب .. مبارك ..

وقامت تحضر لهم مع زوجتى أكوابا من الشراب البارد الذى لا أدرى من أين جاءت به إلا إذا كانوا قد أحضروه معهم ، ولم أدرك تماما ماذا أفعل أو ماذا يعنون وأنا أوقع على الأوراق صامتا بعد أن يقدمها لى كل واحد منهم ويحيينى بيده وبذراعيه معانقا وينصرف الواحد منهم بعد الآخر وكأنهم قد ارتكبوا إثما يتخففون منه .

وسألتنى أمى :

ـــ ماذا ستفعل الآن ياحاسب ..

قلت لها فى هدوء وصبر واطمئنان لا أدرى مصدره .

ـــ سأقوم لأصلى للوهاب .

وقمت على قدمى واقفا لأمنعها من الأسئلة الأخرى الكثيرة التى رأيتها تتجمع فى عينيها وعلى شفتيها والتفتُّ إلى زوجتى الصامتة الحائرة وقلت لها بكل ما أستطيع من حساب ولطف :

ـــ سوف لن أغلق الغرفة علىّ .. ولكنى سأظل فيها حتى أختم القرآن ولا أريد أن ألقى أحدا فلا يدخل على أحد حتى أخرج لكما ..

ومضيت مسرعا إلى الغرفة وسحبت نسخة القرآن الكريم التى تضعها أمى على المنضدة فى الغرفة التى اتسعت لكل هذا الجمع من الناس ، وذهبت إلى غرفتى وأغلقت الباب ووضعت المصحف على الفراش حتى أتخذ مجلسى للقراءة والتهجد ونظرت إلى الفراش فلم أجد الثوب الحريرى الذى تركته عليه وعندما أردت الخروج مرة ثانية لأسأل أمى أو زوجتى أين وضعاه تحسست قطعة المسك الكبيرة حول عنقى فلم أجدها أيضا .. فصمتت روحى صمتا كاملا تاما وكأنما قد استنارت بفهم ما لا يفهم أو كأننى أقرأ المكتوب . وجلست على الأرض مجلس القراءة واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وسميت باسم الله الرحمن الرحيم وبدأت أتلو القرآن الكريم مستفتحا بالمثانى السبع العظيمات ..

الفصل السابع عشر

الغسل بلا دنس ومهانة السلطان

□□ ظللت فى غرفتى أياما طويلة لا أعرف عددها . أقرأ القرآن وأختمه وأعيد التلاوة والختمة وليس كالقرآن بلسم للروح وشفاء من القلق والاضطراب الذى وجدت فيه نفسى منذ تلك الزيارة الغريبة المفاجئة من أولئك التجار الكبار .

وبين الحين والحين كانت أمى أو زوجتى تدخل الغرفة فى صمت فلا تقطع علىّ القراءة وكأننى أصبحت رجلا يخافانه ويهابانه فتضعان لى الطعام والشراب دون كلام لأتناوله وقت ما أريد ، أو تغيران الماء وطست الوضوء .

وبدأت أرى فى الطعام أطايبه وفى الشراب رائحة الورد وعصائر الفاكهة . وبين الحين والحين تأتى أمى بأوراق لأوقع عليها ولتخبرنى بأن كذا وكذا من المال قد أتانا اليوم من الأملاك الفلانية أو التجارة السائرة .

وفى يوم من الأيام قالت لى أمى وقد نفد صبرها :

ــ ألم يأن الأوان ياحاسب أن تراجع الأوراق التى تركها التجار وأن تعرف ما لك وأن تخرج ولو بين الحين والحين لتفتش عليه ولتعرف الدخل والمنصرف .. إن المال السايب يعلم السرقة ..

فأقول لها مقتضبا مقطبا :

ــ أمهلينى ياأمى .. وعندما يأذن الله سأخرج .

فتصمت أياما أخرى ثم تجرؤ علىّ مرة أخرى وتقول :

ــ ألا تختار لنا من أملاكك الجديدة بيتا نسكن فيه غير هذا البيت الذى كاد يتهدم .. ألا تظننا فى حاجة إلى فرش وأثاث جديد ..

فأقول لها فاقد الصبر:

ــ ألم أقل لك ياأمى أمهلينى .. عندما يأذن الله سأخرج .. لِمَ لا تخرجان معا لتشتريا ما تريدان من الأسواق .. إنى أراكِ قد اشتريت ثيابا جديدة لك ولها .

فتقول غاضبة مجمجمة :

ــ لقد بليت ثيابنا حتى أصبحت قديمة مهلهلة .. ولكنك صاحب المال ورجل البيت ، وحق الله عليك أن ترعى شئوننا .. وبعد كل هذه الغيبة ..

فأفكر فيما تقول وأجد فيه الكثير من العقل والصواب ولكننى لا أستطيع أن أجمع نفسى وأطاوعها فأقول لها .

ــ وحياتك ياأمى أمهلينى قليلا .. وعندما يأذن الله سأخرج ..

فتخرج غاضبة وهى تضرب ما تحمل من طعام أو شراب على الأرض فى غلظة وخشونة وتتركنى لأنفرد بنفسى من جديد وتملأنى الأفكار والأسئلة ولا أجد لها جوابا يريحنى فأعود للقرآن من جديد حتى كدت أنسى ما حدث لى عند الملكة أو لم يعد يعاودنى إلا بين الحين والحين ..

لقد تغير جسدى من طعام الأرض وشرابها وأصبحت أطلب الخلاء وأتمنى لو أننى أغتسل فى الحمام فأتذكر الوعد وأتذكر معه كل شيء وأعود إلى وحدتى وصمتى من جديد .

وتكررت مخاوف أمى على المال السايب وقالت لى :

ــ إننى لا أعرف كيف أحسب لك الدخل ولا من أين يأتى ومتى يأتى وماذا هو فإذا لم تمسك أمورك أنت ياحاسب فأنا منذ الآن لن أستلم شيئا ولن أصرف شيئا .

وألقت لى على الأرض أكياسا مليئة بالدنانير وأغلقت الباب بعنف وخرجت .

وقمت أزيح الأكياس من طريقى وأخرجت الصكوك التى تركها لى التجار ورحت أطالعها فهالنى قدر ما أملك وما يعنيه هذا من مكان وسلطان لى فى السوق .

وتساءلت بينى وبين نفسى هل سيفرض على المال وأولئك التجار صنعة التجارة ، وهل سأجد نفسى على الرغم منى تاجرا مثلهم ، إن قدرة أصحاب الصنعة على أن يصنعوا أمثالهم قدرة لا تنتهى ولا أظنهم يسمحون لأحد أن يمنعهم من اصطناع تجار جدد فى السوق ومن تشغيل أموالهم للربح والاتجار ..

ولكننى لا أريد لنفسى صنعة التجارة وأريد لها صنعة الطب والحكمة مثل أبى .. إنها صنعة أقرب لروحى ولما أجده فى نفسى من قدرة على التأمل الطويل والنظر والاعتبار . ولكن كيف أُحصّل هذه الصنعة وأنا لا أملك حتى كتب أبى .

إننى أعلم فى داخلى الكثير مما لا أستطيع أن أرتبه أو أن أنظمه أو أن أستخدمه فى الصنعة .. فما علمت هو علم بالخليقة وسياحة فى الكينونة والروح لا أستطيع أن أداوى به الناس وإن كنت أعلم بأمراضهم فى الأبدان والأرواح .

ياسبحان الله ، إننى فى الحقيقة لا أعلم على وجة الدقة ما أعلم وما لا أعلم .. ولابد لى أن أخرج إلى الدنيا لأحصل من الكتب والأطباء صنعة الطب التى أرضاها لنفسى ولايمكن لى وأنا باق هكذا فى غرفتى أن أفعل ذلك . وقلت لنفسى إذا كان هذا أمر الله فى الدنيا فعلىّ أن أرضخ له . فالعلم والإرادة مقرونان بالعمل والعناء وقد خرجت من الجنة التى كنت فيها تريد فتعلم وتعلم فتريد .. لقد عانيت وبكيت كثيرا ولكنه ليس كالعناء على

الأرض والدموع التى تنتظرك فيها . فتحرك يارجل واعبد الله بالصلاة وبالقراءة فى القرآن وبالعمل فى الدنيا لاكتساب الصنعة التى تريد .. وأحسست كأن هذا إلهام من الله أو من حلاوة القرآن فى فمى فعزمت على الخروج متوكلا على الله وأخبرت أمى وزوجتى بعزمى فزغردتا فرحا وجاءتا إلّى يشتركان معا فى إلباسى وتزيين شعرى وقص أظافرى ورش الطيب والعطور على بدنى وثيابى .. وخرجت .

وبمجرد أن خرجت من باب البيت أحسست أننى قد تغيرت تماما وأن الحال الذى كنت فيه من الاطمئنان وحسن التدبير قد انقضى أو زال عنى وحل محله فزع وتخوف وشك وتردد كاد يبلغ حد التخبط أو على الأقل رحت أتهم نفسى بذلك . كيف أقيس هذه الدنيا التى فيها بيت أمى وزوجتى بمطالبهما وأفكارهما التى لا تتعدى ما يسترهما من جدار ، والدنيا التى كنت فيها ومن كانوا فيها من رجال ونساء ، حقا إننى أتذكر أحيانا لحظات أو مواقف من دنيا الملكة وأنا أعيش دنيا الناس ، مثل ما فعلت وأنا أتذكر الشر الذى جرى علّى من حيلة الحطابين أو تذكرى لمماليك جانشاه . ولكن شتان بين حساب وحساب وما أبعد المعايير عن بعضها وما أكثر ضحالة المعنى فيما أرى فى الدنيا إذا قورن بنور المعانى فى عيون الملكة ، وكدت أكتم صرخة فى داخلى وأنا أريد أن أنادى عليها أو أتطلع لأرى عيونها وأحسست لأول مرة هناك أو هنا أنى أريد أن أقول لها بصراحة وكامل الصدق .. ياحبيبتى أين أنت .. إننى أفتقدك وأحتاجك ولا أكاد أعرف كيف أعيش بدونك .. لماذا تركتنى أذهب إلى بلادى ولماذا لم تعرفى بحكمتك أننى لم أعد أصلح لذلك ، وأن ذلك ليس هو ما أريد ، ألست صاحبة المعرفة فوق كل المعرفة . ألست المدركة للحب الذى يمتزج بالموت فى الكينونة ليصبح انتظارا وسياحة متصلة . لماذا حرمتنى من كل هذا وتركتنى أحرم نفسى .. ماذا ينتظرنى يامليكتى وماذا على أن أفعل ؟!

كدت أتعثر فى خطوى وأقع وكأننى قد نسيت المشى على وجه الأرض وشوارع القاهرة مليئة بالحفر وبرك الماء الآسن وأنواع لا تنتهى من الوحل . كيف أرضى بهذه الدنيا وكيف أعيش فيها . وما الذى يجعلنى أتصور أننى أستطيع أن أتعلم من الدنيا أو أستطيع أن أتخذ صنعة لى . لقد كنت دائما بلا صنعة وكنت قادرا على اكتساب الصفة العظيمة عندما توصف لى . أما الآن فأنا لا أستطيع أن أكسب شيئا ، حتى كل هذا المال الذى أتانى كان بفضل مليكتى وعن طريقها . فلو لم يخف هؤلاء البشر لما أعطوا وماقدموا لى ماعليهم من حقوق . إن البشر لايعيشون إلا فى همومهم ، ولايعرفون سواها ، وكل ماهم من أخلاق

وقيم صادر عنها وفى حدودها . ماكان أكبر همى بالكينونة وكم كنت كبيرا ملىء النفس وأنا أسعى وراءها .. فإلام أسعى الآن .. أن أحاسب من يسرقونى ؟ أن أراقب من يغشونى ؟ أن أتعلم ممن لا يعلم ويكذب على الناس بالعلم ويدعيه ؟

ماذا فعلت بنفسك ياحاسب ولماذا قلت لها إنك تريد الذهاب إلى بلادك . ها أنت هنا الآن فماذا أنت فاعل بنفسك . لماذا تكذب على نفسك وتقبل كذب الناس . لقد عرفت الصدق الذى ليس وراءه صدق لأنه وجود ورؤية وعرفت المعرفة التى هى عشق الوجود واعتناق المكتوب . لقد عرفت الإرادة الخالصة التى هى فعل خالص وعرفت الحب الذى هو تحقق المستحيل ..

ماذا فعلت بنفسك ياحاسب وماذا تنوى أن تفعل . هل كنت سعيدا ؟ وهل أنت سعيد الآن . لا تحسبن أحدا سعيدا ..

وطفرت الدموع فى عيونى فلم أعد أرى أين أضع قدمى ، وأحسست كأن يدا تدفعنى أو تلكزنى بقصد أن أتعثر بحجارة الطريق حتى وقعت بملابسى المغسولة فى بركة ضحلة من الماء الآسن والوحل فى وسط الزقاق الذى كنت أتمشى فيه .

واجتمع علىّ الناس وعرفت أن الزقاق الذى كنت أمشى فيه هو زقاق الحمام الذى قالت لى أمى إن أبى كان يذهب إليه كل خميس وكانت ترسلنى إليه منذ كنت صغيرا ، وسمعت صوت الحمامى يهتف قائلا وسط زحمة الناس علىّ :

ــ سيدى .. وابن سيدى .. حاسب كريم الدين .. أين أنت .. ومن أين أتيت .. وما شأنك وإلى أين أنت ذاهب لقد كنا ننتظرك منذ أيام عديدة .. لماذا تأخرت .. حمدا لله على سلامتك قم .. قم يا أخى فما أحسن المصادفة وإنها مكتوب .. « هيا تفضل علىّ بدخول الحمام وتكبس حتى أعمل لك ضيافة »

وقمت مفزوعا من ضيافته أنفض عن نفسى التراب والوحل وأحاول أن ألم شعث روحى التى كادت أن تتبدد وأنا أراه يعانقنى ويقبلنى مكررا كلماته التى نادانى بها : سيدى وابن سيدى ..

قلت له برغمى :

ــ « صدر منى يمين أنى لا أدخل الحمام مدة عمرى ... »

قال الرجل :

ــ أطال الله عمرك ياسيدى .. هل هذا كلام .. « نسائى الثلاث طالقات ثلاثا إن لم

تدخل معى الحمام وتغتسل .. »
ـــ ياسيدى .. اعفنى .. أنا لا أستطيع .. أنا لا أريد .
ـــ والله والله ثلاثا ، نسائى الثلاث طالقات ثلاثا إن لم تدخل معى الحمام ..
ـــ « أترضى يا أخى أن تجعل الخطيئة فى رقبتى »
فارتمى الحمامى على رجلى وراح يقبلها وهو يقول :
ـــ « أنا فى جيرتك تدخل معى الحمام وتكون الخطيئة فى رقبتى أنا .. »
واجتمع علىّ عملة الحمام الذين نادى عليهم الرجل وخرج كل من كان فيه وتداخلوا علىّ ونزعوا عنى ثيابى وأدخلونى الحمام .
وبمجرد أن بدأ الماء ينسكب على رأسى وقد اشتركوا جميعا فى ذلك أقبل علىّ عشرون رجلا من عسس المدينة يحملون سلاحهم وقالوا لى آمرين :
ـــ قم أيها الرجل معنا « إنك غريم السلطان » .. وعندنا أمر من الوزير الأكبر أن نرسل له بمجرد القبض عليك .
ونشفوا جسمى بمناشف كان الحمامى يمسك بها ولبست ملابسى مسرعا وهم يتعجلونى وأجلسونى على مقعد خشبى وقالوا لى أن علىّ أن أنتظر حضور الوزير .. ورحت أبكى وأنا أنتظر وأقول لهم أنا برىء .. ولست غريما لأحد .. ولم أرتكب إثما .. وليس لى حقوق على أحد ، ولكن الرجال التفوا علىّ بسلاحهم يحرسونى ويمنعونى من أية حركة وهم صامتون لا ينطقون وهم فى حيرة لا يعرفون ماذا يفعلون غير ما أُمروا به .
وطال انتظارى والدموع تسيل من عينى وما لبث أن امتلأ الزقاق ضجة وطبولا ودخل علينا الحمام الوزير بشخصه وحوله ستون مملوكا من مماليكه . وإذا بحراسى يبتعدون عنى متأدبين ويتقدم لى الوزير وأنا جالس أبكى فيسلم علىّ ويرحب بى بلطف زائد وتلطف لا زيادة عليه ويُخرج للحمامى كيسا من أكياس المائة دينار ويتناولها الحمامى دون أن يقول له شيئا ..
ولما وقفت أريد أن أسأل الوزير عن الخبر قال لى :
ـــ سوف تعرف كل شىء .. تعال الآن معى .
وقدموا لى حصانا فارها وحملونى على أن أركبه وقد أدركت أن لامعنى لأية مقاومة .
وسرت فى ركب الوزير ومماليكه وحرسه حتى دخلنا إلى قصر السلطان . وعلى الرغم من أننى لم أر قصر السلطان من قبل فى حياتى كلها وما كنت أظننى سأدخله أبدا إلا أننى

كنت عاجزا عن أن أتطلع أو أتحقق فيما أرى وكأننى فى حلم أو كابوس ثقيل . وحنت روحى إلى مليكتى وقد تيقنت أننى قد نقضت العهد وأن على مرغما مهانا أن أنتظر .

وقال لى الوزير ملاطفا :

ــ تقدم ياحاسب واجلس هنا بجانبى .

وأمر بسماط ممدود ، عليه كل ما لذ وطاب وطلب منى أن آكل كى يأكل بقية الحضور وهو معهم فأكلت مرغما وأنا أمضغ الطعام وكأنه لحم ميت يسيل دما . فلما فرغوا من الأكل شربوا وغسلوا أيديهم وأنا أفعل ما يفعلون جالسا لا أعرف ماذا أقول لهم أو ماذا يقولون حولى .

وقام الوزير من مجلسه فقام كل من حوله حتى أنا ولكنه توجه إلىّ وقال لى بصوت يسمعه الجميع :

ــ « نحن فى خدمتك فى كل ما تطلب .. ولو تطلب نصف الملك أعطيناه إياك لأن شفاء الملك على يديك »

وأخذنى من يدى وذهب بى إلى حيث يرقد السلطان فى فراشه الملكى وكشف عن وجهه فرأيته فى غاية المرض حتى ظننته ميتا ولكن الوزير يأخذ يدى ويقبلها قائلا :

ــ « نريد منك أن تداوى الملك والذى تطلبه نعطيك إياه وهذه حاجتنا عندك »

وتصورت أنهم يتصورون خطأ أننى طبيب مثل أبى الذى كانوا ولا شك يعرفونه ، فقلت للوزير وأنا أحاول أن أحفظ لنفسى شيئا من الوقار وأن أمسك دموعى :

ــ « نعم .. كان أبى طبيبا بارعا لكننى ما أعرف شيئا من العلم فإنهم وضعونى فى صنعة الطب ثلاثين يوما فلم أتعلم شيئا من تلك الصنعة وكنت أود لو عرفت شيئا من العلم وأداوى السلطان .. »

فتغير صوت الوزير وكأنما كشر عن أنياب مفترسة وقال لى ناهرا :

ــ « لا تطل علينا الكلام ، فلو جمعنا حكماء الشرق والغرب فلا يداوى السلطان إلا أنت .. »

ــ وكيف أداويه وأنا لا أعرف داءه ولا دواءه ..

ــ إن دواء الملك عندك .

ــ لو كنت أعرف دواءه لداويته .

ــ أنت تعرف دواءه معرفة جيدة ، فإن دواءه هو ملكة الحيات ، وأنت تعرف مكانها ورأيتها وكنت عندها .. »

وعلى الرغم من أننى كنت أتوقع على نحو غير مفهوم أن اسم مليكتى سيأتى فى هذا الحوار ، وعلى الرغم من أننى كنت أحسها وأراها فى عينى منذ أن سقطت أمام الحمام أو أسقطتنى الحيلة ، إلا أننى لم أكن أنتظر كل هذا التقرير عن وجودى عندها وكأنه حقيقة عامة يعرفها كل إنسان . وتيقظت روحى تماما للدفاع عن نفسى ولكننى لم أكن أعرف ماذا أفعل إلا أن أنكر وأن أواصل الإنكار :

ــ « أنا لا أعرفها ولا سمعت طول عمرى بهذا الاسم . »

أهكذا تنكرها ياحاسب وهى كل ما تعرف فى حياتك وكل ما سمعت طول عمرك . أهكذا تنكرها ياحاسب ؟ ما الذى سيجرى عليك الآن وما الذى قالته لك وهى تطلب منك ألا تدخل الحمام . هل أنت سائر إلى بقية كلامها .. كيف أوقف كلام الرجل ، كيف أخرج من هذا الموقف ومن هذا الوقت الذى أعيشه الآن فلا أحس إلا كأننى أعدو وأعدو دون أن أستطيع أن أقف وأننى سأقع من جديد فى بركة ضحلة ولكنها من الدم هذه المرة .

ــ « عندنا دليل على أنك تعرف مكان ملكة الحيات ، فلأى شيء تنكره . أرنا الموضع الذى خرجت منه وابعد عنا وعندنا الذى يمسكها ولا ضرر عليك .. »

ــ « أنا لا أعرفها ولا سمعت طول عمرى بهذا الاسم »

ــ هاتوا عجوز الحطابين .. وعذبوه أمامه .. دعوا حاسب يرى كيف نعذب الناس لينطقوا وليعترفوا بآثامهم .

ولست أريد أن أذكر أو أرى مرة أخرى ماذا فعلوا بالرجل ومن أين جاءوا به لساعتهم والرجل يصرخ ويقول :

ــ لقد أعطيناه نصف أملاكنا .. وإذا أراد فليأخذها كلها .. أمه هى التى قالت .. ونحن قد تركناه عند مدخل جب نسيناه .

ــ أتريد أن تسمع أمك أيضا وهى تعترف بما قلته لها .. إن كل نساء البلد يتحدثون عنك .. ويطمعون فيك وكأنك الرجل الوحيد فى المدينة .

ماذا يعنى هذا الشيطان الغريب الذى يعيش فى كل هذا السلطان على وجه الدنيا . لقد رأيت ما رأيت فى عالمى الذى كنت فيه فلم أر شيئا من مثل هذا من قبل ولم أعرف موقفا كالذى أنا فيه الآن . إن صراخ العجوز يصك آذانى وأتضرع للوزير :

ـــ إنه شيخ عجوز .. اتركه .. سيموت الرجل .

ويتوالى الضرب على الرجل وهو ملقى على الأرض تركله الأقدام كلما قام والوزير يقول لى :

ـــ أتريد أملاكهم كلها .. هل نأتى بهم جميعا .. أم نأتى بأمك لتتكلم .. تكلم وقل لنا ولا ضرر عليك ..

ـــ « لا .. لا .. سأتكلم .. ولكن دعونى وحدى أخلو لنفسى لأفكر وأتذكر .. لقد نسيت .

فخرج الوزير وكل من معه وجمعوا الشيخ من على الأرض جمعا وألقوه بالخارج وتبقيت وحدى فى بهو الحكم أشعر بمهانة ما بعدها مهانة وبغيظ وازدراء لنفسى يكاد يشلنى عن كل تفكير .. كدت أصرخ وأصيح عليها أن تنقذنى .. قلت لها فى نفسى لماذا تتركينى وحدى هكذا .. وإلى متى سأظل فى هذه الوحدة .. ماذا فعلت أنا وماذا ارتكبت من آثام وأين السعادة التى كنت فيها تحت عينيك .. كيف أحسب حساب كل شيء وسلطان الرجل يفسد كل حساب ويضعه على هواه ؟ ألم يكلف الحمامى أن يجعلنى أسقط أمامه حتى يدخلونى الحمام عنوة ؟ ألم يخف الحطابين حتى نطقوا .. ألم يتلصص حتى على كلام النساء .. لماذا لا توقفين الزمن من أجلى .. لماذا لا ترفعين المكان ؟ كيف أعيد الآن أو أحكى ما لا أريد أن أسمعه أو أراه ..

ودخل علىّ الوزير بحاشيته من جديد مبتسما متهللا وبدأ يلاطفنى ويقول لى هيا ياحاسب قم وأرنا الموقع .. وأشار إلى مماليكه فأتوا بخلعة مزركشة ألبسوها لى ووضعوا على رأسى عمامة عظيمة مزينة بالجواهر وفى قدمى نعلين جديدين وسلحونى بخناجر مزركشة فى وسطى ورأيت نفسى فى مرايا البهو فلم أعرف نفسى ولا أظن أن أمى نفسها ستعرفنى .

وفرح الوزير فرحا شديدا وهو يصدر أوامره لاعداد الركب الذى خرج فيه جميع أمراء السلطان وركبت إلى جانب الوزير أمامهم جميعا ، ومازلنا سائرين حتى وصلنا الجبل .. وترجلت فترجلوا جميعا يتبعونى وقد تأخروا عنى خطوات حتى وصلت إلى المغارة فاقتربوا منى عندما وقعت إلى الأرض باكيا وكأننى أناديها وتقدمت سائرا بمفردى حتى وصلت إلى البئر التى طلعت منها ، وأنا أحس أننى سأموت الآن أو أنها حتى آخر لحظة قد تنقذنى وانحنيت ألثم الأرض عند سطح الجب وأنا أقول بصوت متهدج باك :

ـــ هذا هو الجب الذى خرجت منه إلى وجه الأرض .

الفصل الثامن عشر

ارتكاب الإثم ورغوة المعرفة

□□ أهذا هو الشعور الذى يحسه كل من يسلمون من يحبون . ما أفظع هذا الشعور وما أصعب عذاباته . هل يمكن لأحد أن يصفه أو يمسك به . إن المهانة التى يحسها المرء فى نفسه وقد فعل ما فعل لا يعادلها أى عذاب فى التعذيب . ومع ذلك يخشى الإنسان على نفسه فيقع فى جحيم آخر لا قرار له . ما أكثر أنواع الجحيم وصور العذاب والتعذيب على وجه الدنيا . لِمَ لم أحتمل العذاب من الوزير ولِمَ لم أقاوم أو أصمد . ويخترع الإنسان كلمات مثل المكتوب والمقدور كى يفتح لنفسه بابا للغفران ولكن من أين يأتى الغفران وقد اكتملت المهانة فى داخل النفس وأصبحت هذه المهانة هى كل وجودها وما تعيش فيه . لو أنها تنقذنى .. لو أنها تقتلهم جميعا .. لو أننى أموت .. لو أظل أضرب رأسى فى حجارة الجبل حتى يتفتت ويتوقف هذا الشعور والتذكر .

أمسكنى بعض الحرس حتى لا أواصل ضرب رأسى فى حجر الجبل فتوقفت أخلص نفسى منه وصممت على احتمال ما أنا فيه صامتا ساكتا لا أتكلم ، وأنا أرى عينيها وأسمع صوتها العسلى ولا أعرف متى ينتهى هذا كله ولا إلى ماذا سيصل . ما أكثر الصور والأمانى التى تزدحم فى رأسى وما أكثر النهايات التى كنت أريدها لهذه الحكاية غير هذه النهاية .

وقال لى الوزير ملاطفا :

ــ هون عليك ياحاسب .. فهذا كل ما نريده منك .. سوف تصير عالما مثل أبيك الذى عرفته قبل أن تولد .. وقد علمنى الكثير من علم الروحانى وأعطانى نسخا من كتبه التى غرقت فى البحر وفيها قرأت عن ملكة الحيات .. وأنت ابن أبيك فاصبر وانتظر .. وستنال كل ما تريد ..

وأحسست بكراهية لأبى الذى كان يعرف مثل هذا الرجل أو علمه شيئا . وقلت لنفسى إن الوزير الشيطان يحرمنى من كل شىء حتى ذكرى أبى وورقاته التى مازلت أحملها . فهل هناك جدوى لأى علم أو معرفة إذا كان لم يعلّم ابنه أو لم يترك له ما يُعَلِّمهُ كيف يصمد ولا يخون وكيف لا يُسلم من يحب .. وهل هذا أمر يمكن أن يتعلمه الإنسان أم هو أمر مستحيل على وجه الأرض .

تذكرت عفان الذى كان مع بلوقيا واطمعه فى خاتم سليمان وصحبه مثلى الى مليكتى وعرفه مكانها ، وقلت لنفسى : هل أصبحت عفان أم أنك بلوقيا الذى أحس بالندم ؟

ولكننى أشعر بما هو أفظع بكثير من الندم . إننى أقول لنفسى لو أننى لم أخرج من غرفتى .. لو أننى لم أدخل الحمام .. لو أننى صمدت للتعذيب .. لو أننى احتملت المهانة ..

فهل هذا هو الندم . إننى مازلت لم أرتكب إثما فهل أنا صائر إلى ارتكاب ما هو أفظع مما ارتكبت إلى الآن .. وماذا ارتكبت إن لم يكن إثما .. فما هو الإثم ياMلیكتى فيما ارتكب وهل الخلف للوعد ونقض اليمين هو الإثم الذى ارتكبت .. أم أنه الكلام ، والصدق فيما قلته لأمى .. وكيف كان يمكن أن أمنع نفسى من أن أقول الصدق .. ولهذه الأم التى انتظرتنى كل هذا الوقت .. أنا لم أرتكب أصلا إلا هذا البوح . هذا الصدق فى الروح من الاعتزاز والفرح والسعادة بما كنت فيه . وكيف يصبح التعبير عن السعادة إثما .. وهل الواجب على البشر إذا منحوا نعمة السياحة وراء الكينونة أن يصمتوا وأن يخفوا ما رأوا .. هل الإعادة للحكاية هى إذن الإثم ... فما أكبر الإثم إذن فى كل ما أعدت وحكيت .. كيف يمكن أن أحجب المستحيل الذى عشته وهو بشارة وتعليم للبشر رغم ما هم فيه من جهل وقساوة وغلظة فى الوعى والشعور .

أنا على بابها واقف الآن لا أعرف أين هى ولا ماذا تفعل ، ومن عندها ، وماذا سيجرى عليها وعلىّ وأنا أقترب من جديد من حكايتها وحكايتى وكأنها لم تنته بعد ولم أخرج أنا على وجه الدنيا ، ولم تنصع هى لرغبتى أن أذهب لبلادى . ياMلیكتى كيف قبلت رغبتى وارادتى وأنت تعلمين أن رغبتى ناقصة وإرادتى — كما علمتنى — ظن .. أليس كل ما يحدث الآن كان فى علمك ومعرفتك وكل جريمتى وإثمى أننى الأداة والوسيلة التى تبلغنى وتبلغك إلى ما هو مكتوب مقرر .. وهل كان فى إمكانى حقا أن أمنع ما حدث أو أن أعيقه ..

وكنت كلما وصلت إلى هذا المعنى من الاستسلام والرضوخ أحسست بما فيه من خيانة وكذب على النفس ورغبة غير صالحة فى تبريرها فأثور على نفسى من جديد وأود لو أعود من جديد لضرب رأسى فى الحجارة والقضاء على هذا الخائن الواقف ببابها بعد أن أسلمها ، أو أريد لو أستطيع أن أقتل وأن أقضى على هذا الشيطان الذى صحبته حتى بابها الذى كان علىَّ أن أحفظه مقدسا مصانا من الآثام وأن أحميه من الأقدام الدنسة ..

ياربى لِمَ لا ترحمنى وتنير طريقى لأعرف ماذا على أن أفعل ، والوزير والحرس وكل من حوله يعرفون ماذا يعملون وماهم مقبلون عليه . أنا وحدى الذى أراد بكرم الروح وصدق النفس أن يملأ الناس بفرح المستحيل وأن يسعد بما نال من سعادة .. ولكن السعادة أصعب من المستحيل لا تكتمل ولن تكتمل إلا بالموت .. فلِمَ يكون للموت دائما توقيت يجعل السعادة مستحيلة .. اقبضنى الآن يارب فأنا ممن لن يعرفوا السعادة أبدا ..

وتلفت وقد شدتنى الحركة والجلبة التى بعثها الوزير فى الجمع المجتمع حولنا من الأمراء

والعسكر ورأيتهم ينصبون تحت توجيهه وإمرته محرقة يوقدون تحتها النار ، والشيطان يلبس عباءة سوداء ويضع على الجمر الذى تأجج فيه ومن تحته النار ، أنواعا من البخور وهو يتلو عزائم وأقساما لا أستطيع أن أتبينها ، وينفث ويهمهم ، ويمد يديه وذراعيه ويحركهما وكأنه ساحر ماكر أو كاهن عظيم . ما أغرب هذه القدرة التى يملكها الرجل الشيطان ويتمناها كل الناس وهم لا يعلمون خطيئة الافتتان بها .. وظل الرجل يجدد البخور ويضع غيره كلما فرغ وهو يتلو أقسامه وعزائمه ثم قال :

ـــ « اخرجى ياملكة الحيات .. »

هكذا ، نعم ، اخرجى ياملكة الحيات وكأن الجرم ، كلما ازداد وفظع ، كان بسيطا موجزا ككل ارتكاب للإثم . « فإذا البئر قد غاض ماؤها وانفتح فيها باب عظيم وخرج منها صراخ عظيم مثل الرعد حتى ظنوا أن تلك البئر انهدت . ووقع جميع الحاضرين فى الأرض ومات بعضهم وخرج من البئر حية عظيمة مثل الفيل يطير من عينيها ومن فمها الشرر مثل الجمر وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر وفى وسط الطبق حية تضىء المكان ، وجهها كوجه إنسان وتتكلم بأفصح كلام .. وهى ملكة الحيات .. »

نعم ، إنها هى ، هى هى بوجهها المنير وطبقها الأحمر الذهبى ، فمن أنا الآن ومن أكون ومن أين أتيت وإلى أين أنا ذاهب ، وكيف أستطيع أن أحسب مكانى وموضعى وأنا لم أكن أتوقع أبدا مثل هذا اللقاء وسط هذا الجمع وفى تلك الغربة المضروبة على روحى لأننى تكلمت ونطقت باسمها .

تلفتت مليكتى « يمينا وشمالا فوقع بصرها علىّ » وكم كنت أود لو أننى مِتُّ ضمن من ماتوا أو سقطت فى البئر التى انهدت فلا ترانى أو تعرفنى . وكم ضرعت إلى الله أن تهملنى وأن تجعلنى نسيا منسيا ولكنها ظلت تتلفت حتى حصلت على عينى فلما ثبتتهما علىّ قالت بصوت مفزع كأنه عويل ليس فيه شىء من صوتها العسلى :

ـــ « .. أين العهد الذى عاهدتنى واليمين الذى حلفته لى من أنك لا تدخل الحمام .. ولكن لا تنفع حيلة فى القدر .. »

ولا أظن أحدا من البشر يبلغ من جهله أو قساوة قلبه وغلظة وعيه وشعوره ، فيعجز عن أن يعرف عواصف البكاء التى عصفت بوعيى وشعورى وأنا أسمع صوتها الذى صار حقا مشاعا يسمعه الجميع ويرونها وهى تقوله . ولم أستطع أن أحول عينىَّ أو أخفضهما

عن عينيها اللتين لم تكن فيهما الآن غير دموع تتساقط كالجواهر على وجنتيها اللتين مازالت أصابعى ويدى ترتعش من ذكرى مسهما .

وكأن الشيطان السلطانى من طينة اخرى غير طينة البشر فقد تقدم ملهوفا إلى الطبق الذهبى « ومد يده إليها يمسكها .. فقالت له :

ــ امنع يدك ، وإلا نفخت عليك وصيرتك كوما أسود .. »

وخطر لى مرة أخرى عفان والرماد الذى صار إليه ، فقلت صارخا وكأنما أنا حريص على الرجل أو أننى أريد فقط أن أسبه :

ــ ارفع يدك ياغبى .. تبت يدك ..

ورفعت هى عينيها ومازالتا مليئتين بالدموع وقالت لى بصوتها العسلى الذى سرى فى بدنى وكأنه أمر لا مرد له :

ــ « تعال عندى ، وخذنى بيدك .. وحطنى فى هذه الصينية التى معكم .. على رأسك .. فإن موتى على يدك مقدور من الأزل ولا حيلة لك فى دفعه .. »

أهذه براءة يامليكتى وغفران أم أنها تأكيد للإثم ودفع لى ، أنا المسكين المسلوب الإرادة والفكر ، على الولوغ فيه وغمس يدى فيه حتى أعمق أعماقه التى لا نهاية لها . كيف أفعل يامليكتى ما تأمرين وأنا لا أستطيع أن أفعل إلا ما تأمرين . لقد نصبت قامتى وأحسست أن الأمر الذى يميزنى على كل البشر قد أعطانى مزيدا من الطول والقوة وصلابة الاتزان فوضعت الصينية التى أحضرها الوزير معه على رأسى ورفعت طبقك الذهبى دون أن أمسّك ووضعته كما كان على رأس الحية فى الصينية التى على رأسى ، وسرت راجلا أتبع الوزير وقد ركب على فرسه وسار متمهلا ، وكان يَعُد خطواتى ويحرسها بمن جعلهم خلفى من جمع راجل وراكب .

ولما مضينا فى الطريق الطويل إلى المدينة بضع خطوات وأنا أفكر كيف تستطيع روحى أن تظللها من الشمس ومن حر صحراء الجبال إذا بى أسمع صوتها يأتينى هامسا فلا يسمعه أحد غيرى وللركب جلبة وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم جميعها عليها غشاوة الفتنة بالكسب والانتصار .

قالت لى وصوتها العسلى الهامس ينثال فى بدنى فكأنه يشربه قطرة قطرة ويحفظه فى وعيى وقلبى وكأنه محفور على لوح مكتوب :

ــ ياحاسب اسمع ما أقوله لك من النصيحة وإن كنت نقضت العهد وفعلت هذه الفعال لأن ذلك مقدر من الأزل .

ـــ سمعا وطاعة ، ما الذى تأمرينى به .؟

ـــ إذا وصلت إلى بيت الوزير فإنه يقول لك اذبح ملكة الحيات وقطعها ثلاثا فامتنع عن ذلك ولا تفعل . وقل له أنا لا أعرف أن أذبح لأجل أن يذبحنى هو بيده ويعمل بى ما يريد ، فإذا ذبحنى وقطعنى يأتيه رسول من عند الملك ويطلبه إلى الحضور عنده فيضع لحمى فى قدر من النحاس ويضع القدر فوق الكانون قبل الذهاب إلى الملك . ويقول لك أوقد النار على القدر حتى تطلع رغوة اللحم فخذها وحطها فى قنينة واشربها أنت فإذا شربتها لا يبقى فيك وجع ، فإذا طلعت الرغوة الثانية فحطها عندك فى قنينة ثانية حتى أجىء من عند الملك وأشربها من أجل مرض فى صلبى ، ثم إنه يعطيك القنينتين ويروح إلى الملك . فإذا راح إليه فأوقد النار على القدر حتى تطلع الرغوة الأولى فخذها وحطها فى قنينة واحفظها عندك ، وإياك أن تشربها . وإذا طلعت الرغوة الثانية حطها فى القنينة الثانية واصبر حتى تبرد واحفظها عندك حتى تشربها . فإذا جاء من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فاعطه الأولى وانظر ماذا يجرى له . وبعد ذلك اشرب أنت الثانية فإذا شربتها يصير قلبك بيت الحكمة .. وبعد ذلك أطلع اللحم وحطه فى صينية من النحاس وأعط الملك إياه ليأكله فإذا أكله واستقر فى بدنه فاستر وجهه بمنديل واصبر إلى وقت الظهر حتى تبرد بطنه . وبعد ذلك اسقه شيئا من الشراب فإنه يعود صحيحا كما كان ويبرأ من مرضه بقوة الله تعالى . واسمع هذه الوصية التى أوصيك بها وحافظ عليها كل المحافظة .. »

كانت الكلمات تنحدر من الصينية فوق رأسى فتنحفر كلمة كلمة فى قلبى وحافظتى كأنها تنكتب فيها بقلم من الحديد المحمى ، فأحفظها عن ظهر قلب وكأنى قرأتها وأعدتها ألف مرة ومرة . وظللت صامتا أعيدها لنفسى فأتخيل ما تقول إنه سيحدث وكأنه حدث وأننى أعاينه وأشارك فيه كما أمرتنى ، وتلتهب رأسى ومشاعرى بثقل الكلمات وما تحمله من قضاء وحكم ، وما تطلبه منى من حيلة ومداراة لهذا الشيطان الراكب أمامى حتى أكاد أنفجر برغبتى ـــ التى لم أعرف مثلها من قبل أبدا ـــ فى قتله والإجهاز عليه فأخنقه من عنقه البارز أو أطعنه فى ظهره القابع على فرسه بما سلحونى به من خنجر حتى يقع على الأرض . وخشيت أن أتعثر فى الطريق وأن يسقط من على رأسى حملى الغالى وخفت أن يكون هذا آخر ما أسمع من صوتها فكدت أصرخ عليها مناديا ولكننى تنبهت الى حرصها على أن يكون صوتها هامسا وهى تكلمنى وماتعنيه كلماتها من ضرورة الحفاظ على الكتمان

وعدم البوح بشيء مما قالت . فرحت أحادثها من بين أسنانى وأنا أكز عليها من الغضب وانفجار الدموع وقلة الحيلة التى أحس أننى فيها :

ــ لِمَ يا مليكتى وأنت القادرة العارفة ، لِمَ لا تقاومين وتحاربين بسلطانك هذا السلطان الجائر ..

ــ اعلم ياحاسب أننى حاربت فيك وفيمن كان قبلك بما فيه الكفاية ، وقد آن الأوان من أجلك للرضوخ والاستسلام ..

وقد مستنى .. « اعلم » التى قالتها بمس من الرعدة جعلنى غير قادر على أن أفهم مرامى كلماتها . وكانت « اعلم » عندما تستخدمها تنير بصيرتى ووجودى وتجعلنى أكون ما تقول . فهل كانت تحاربنى وهل أنا شرير طاغ مثل هذا الوزير ؟ وماذا تعنى وهى تقول آن الأوان من أجلى للرضوخ والاستسلام .. من أجلى .. من أجلى أنا تموت وتترك نفسها ؛ يذبحها مثل هذا الهمجى المتوحش .

وصحت عليها من جديد وأنا أتكتم صوتى ودموعى :

ــ لم لا تحرقينهم جميعا ، كل هذا الركب ، بنفخة واحدة ؟

ــ لأنك ياحاسب فيهم وواحد منهم .

ــ وأنا أيضا يامليكتى .

ــ أنا أحبك ، فلا أستطيع .

ــ وأنا أيضا أحبك .

ــ ولكنك تستطيع .

ــ ماذا أستطيع يامليكتى وأنا لا أستطيع شيئا . وبماذا أنا متهم الآن وكلى رغبة أن أحميك وإرادة أن أحطم كل شيء لخلاصك ؟

ــ ألم أقل لك ياحاسب إن رغبتك ناقصة وإرادتك ظن .

ــ افعلى أنت إذن شيئا .. أى شيء .. احرق هذا الوزير وحده كما احترق عفان .

ــ إن له عقابا آخر . لا تنسَ الوصية ياحاسب .

وصمتتْ لا ترد علىّ طول الطريق بعد ذلك وأنا أناديها ودموعى تسيل على ثيابى فتبللها والجو الحارق يحرق بدنى ورأسى وملابسى الثقيلة المزخرفة التى خلعها علىّ الوزير تكاد تكتم أنفاسى . وسرنا صامتين حتى وصلنا بيت الوزير وبدأ ما أوصتنى به ، يجرى علىّ وعليها ..

ليس فى مكنتى أو فى روحى قدرة على أن أعيد ما حدث فقد حدث كما قالت بالنص .
الا أن الوزير سبنى عندما تقاعست عن الذبح كما أمرتنى وأنا لا أنقطع عن البكاء :
ــ « يا ذاهل العقل كيف تبكى من أجل حية » .
ولكننى استطعت أن أمسك نفسى وأن أحاسبها على ضرورة الصمت والكتمان حتى شرب الرجل القنينة الأولى التى كان يقصد أن أشربها أنا .. فلم يُتم شرابها حتى سقطت من يده وتورم من ساعته ومات .
أما أنا فقد تعلمت بعد هذا الذى جرى لى وبعد أن شفى السلطان وجعلنى وزيرا بدل الشيطان الساقط ، أن أصمت ولا أتكلم ، وعلى الخصوص ألا أحكى أو أعيد مكتفيا دائما بالمكتوب راضيا به .

الفصل التاسع عشر

صفحة الختام المكتوبة

توكل حاسب كريم الدين على الله وشرب ما فى القنينة الثانية فلما شربه « فجر الله فى قلبه ينابيع الحكمة وفتح له عين العلم وحصل له الفرح والسرور .. ورفع رأسه إلى السماء فرأى السموات السبع وما فيهن إلى سدرة المنتهى ورأى كيفية دوران الفلك وشاهد هيئة البر والبحر وعرف علم النجوم وعلم الهيئة وعلم الحساب وعلم ما يترتب على الكسوف والخسوف وغير ذلك . ثم نظر إلى الأرض فعرف ما فيها من المعادن والنبات والأشجار وعلم جميع ما لها من الخواص والمنافع واستنبط من ذلك علم الطب وعلم الكيمياء وعرف صنعة الذهب والفضة .. »

وامتلك حاسب كريم الدين صنعة الطب وصفة السياحة وراء الكينونة التى لا تنتهى ولا حتى بالموت .

الرياض فى ٢٠ أبريل ١٩٨٩م

في القسم الثانى استخدمت المكتوب فى ألف ليلة وليلة على أنه تسجيل لكينونة قد امتزجت بالزمن ...

إن السعى وراء الكينونة ، الذى يجب أن ينتهى إلى اكتشاف ، الذات ، يؤدى إلى تبين قيمة التفرقة التى استخدمتها ألف ليلة وليلة بين (الصفة) و (الصنعة) ؛ فالمرء بالصفة يوجد وبالصنعة يمارس الوجود ، والسعى وراء واحدة منهما دون الأخرى غير مجدٍ لأنه لا يولد القيمة .

فالمستحيل إذا اقترن بالوجود قد يولد الصفة ولكنه لا يصنع القيمة المطلقة .

والمستحيل إذا اقترن بالزمن قد يولد الصنعة ولكنه أيضاً لا يصنع القيمة أما إذا اجتمع للمرء (الصفة المقترنة بالمستحيل والصنعة المتولدة عن تجربته فقد يجد الكينونة) .

بدر الديب



